

رواية

جمال الغيطاني خُلسات الكرى

دفاتر التدوين : الدفتر الأول



سلسلة
مكتبة

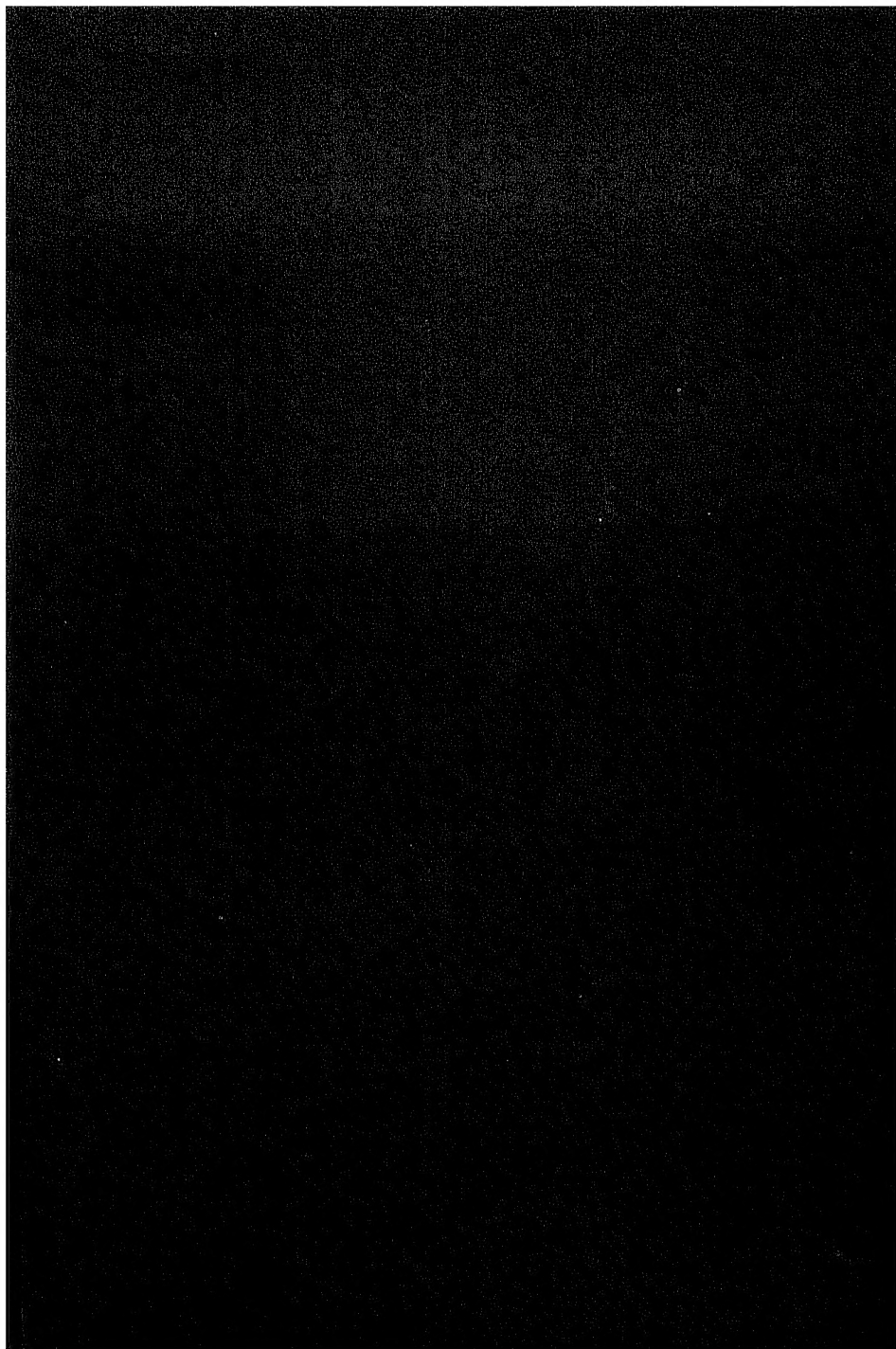
محيى الدين
الطيب



Bibliotheca Alexandrina



0018009





خُلُسات الكرى

جلسات الكرى

جمال العيطاني

الطبعة الأولى ١٩٩٦

© حقوق النشر محفوظة ١٩٩٦



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صلتقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

س.ت ٢٦٩١٩٨

ت ٣٩٠٢٩١٣

غلاف : محيي الدين اللباد

رقم الإيداع ٨٤٥٢ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي 9 - 015 - 283 - ISBN 977



خُلُصَاتُ الْكُرَى

جمال الفيطني

دار شرقيات للنشر والتوزيع

نظري بدءٌ علِّي
ويح قلبي وماجني
يا معين الضنى عليّ
يَ ، أعني على الضنى

"الحلاج"

تَحْنِين

ما تبقى أقلُّ مما مضى .

يَقِينُ لا شكَّ فيه ، أعيه . أَمْثَلُهُ ، أَعِيشُهُ . فلماذا أبْدو مَبْهُوتًا ، مَبْاعْتًا كأنِّي لا أعرف . مع أنني المعنيُّ والمطويُّ والماضي إلى زوالٍ حتميٍّ ؟ لا أتوقف عن إبداء الدهشة ، لا أكفُّ عن التساؤلِ إنَّ بالصمتِ . أو بالنطق ..

لماذا يُسرِّعُ الإيقاعُ مع قُرْبِ التمام ؟

لماذا تنشط الخطى وتُسْرِعُ الحركة عند الدنو ؟

لماذا يَقْوَى العَزْمُ عند قُرْبِ نفاذِ الطاقة ؟

لماذا يَقَعُ التوثُّبُ مع صَلَصلةِ أحراسِ الرحيل ؟

لماذا تكون أقصى درجاتِ اللمعة قبيل الانطفاء ؟

لنا في توثُّبٍ واندلاعٍ لحبِ الشمعةِ أسوءُ وعِبرةٌ ، أما ذرورةٌ ضجيجِ الآلةِ المحرَّكةِ في الطائرة أو الناقلة البحرية قبل الكفِّ مباشرة . إدراكي غمَّائي وانتباهي قضائي .

حتى الثلاثين ، يكون التطلع أكثر من الالتفات . بدءاً من الأربعين ، وبعد فقدِ الأحبة ، يكون بدءُ إدراكِ القوَّة . حتى إذا حَلَّت الخمسون ، وأُصِدتْ أبوابٌ ، أُيقِنْتُ أن ما تبقى سينقضي كَنَدَفِ الغمام إذ تذروها الرياحُ ، لهذا شرعتُ ، قُلْتُ فَلَا عَتَبَ السَّنَوَاتِ القادمة ، إذا قدر لي اجتيازها . حقاً .. لا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت ؟

خطوة المرة قوامها ساقان، واحدة إلى الراء، الأخرى إلى الأمام، الأولى انقضت، ولأنني لا أدري بالضبط ما سيكون عليه الحال في اللحظة التالية، قلتُ فلا شرع.

هكذا تهيأت. ورغم أنني مسكونٌ بالتوق، إلا أنني كنتُ بحاجة إلى التحنين، وهذا من الحنين وغيره أيضاً. الحنينُ كما جاء في "اللسان" هو الشديد من البكاء والطرب. وهو خلاصة الشوق وتَوَقُّان النفس. وهذا حالٌ غالبٌ عليّ فقد حُزَّتْ الحنينُ وصفاً ومضموناً.

يُقالُ: حَنَّ قلبي إليه فهذا نزاعٌ واشتياقٌ من غيرِ صَوْتٍ، وَ حَنَّتِ الناقةُ إلى أَلْفِها. فهذا صوت مع نزاع، وكلا الأمرين عالقٌ بي. أما التحنينُ - كما أفهم - فهو الحُضُّ على الشوق، والتشجيعُ على الميل. وكلاهما لا يكونُ إلا من أجل عزيز، غالٍ، بعيدٍ، وهل هناك أعزُّ على المرء من عمره ؟
هل ثمة أفسى من اللحظات المؤلِّية ؟

لا أظن. لذلك شرعتُ، غير أنني أبدأ بالتحنين. فالمسافات بعيدةٌ والعلامات باهتة. بل إن بعضها مُجَيّ تماماً. وأصعبُ الترحال ما كان في الذاكرة، وعهدي بالتحنين قديمٌ. في زماني الأول، مسقط رأسي، حيث النخيل وظلالُ الماء في القنوات السارية. ورائحة الخبز عند الظهر، وعبق البوص، والطينُ الراكد، والطينُ العسليُّ. و"بكاتُ" ماكينة الطحين الغروبية. وأصداء تلك الأغنيات التي يوحد بينها الشجنُ، إذ يجتمع النساء في صحن دار فسيحة. يبدأُ التحنين، يقصِّدنُ إثارة الأشواق إلى أرض يثرب ومكة، كنَّ يقصِّدنُ إثارة الشوق عند من يُصغِي ويسعَى، غير أن أصواتهن اتخذتُ سبيلاً عجباً، سرَّتْ عبر الوقت بعد أن هجعت عندي زمناً طويلاً. فاستثارتُ أساي. وامتزجتُ عندي بأنغام غامضة يصعبُ تصنيفها أو نسبتها إلى مرجعية بعينها، أو مقامات خاصة، منها القادمُ إليّ، الساري لحوي، غير أن معظمها صادر عني،

الغريبُ أنها بعثت ملامحَ طافت بي، عبرتني، لا أكاد أمسك أحدها حتى
يفلت. أوشك على التمكن فيولّي. رغم انتفاء اليقين، إلا أن ما بدا صعباً،
عسراً أثار شجاي. أما الرفارف التي أحاطت بي ومستني وأججنتني، فمتعلقٌ
أمرُّها بالمرأة، فكما بدأ سعبي منها واستمر إليها. أتوسل بها و ألهبُ بها أمري
لعل منهلي دان..

ما يُمكن أن يكون

ليس الجمال الأنثوي إلا إشارةً وتلميحاً إلى عذوبة الكون المتكوّن بالفعل
والختم أيضاً. أنفقتُ عمري في التشوّف إليه، غير أنني لم أرتو ولم أنل حظي.

إذ يبدأ نزوعي فالبدار. البدارُ إلى أول من عرفتُ، إلى رَجيمِ أُمي، إلى
عنائها حتى انفصالي عنها واتصالي بها، والمعلوم أنه ما من كينونة إلا بعد
مجاهدةٍ وتدويم. فسعادةُ استيعاب اليُسْر لا تكونُ إلا بعد الإفلاتِ من العُسْرِ.
وبقدر المشقة يكونُ الانشراحُ، والمعرفةُ نسبيةً، وليس تحصيلُها مريحاً في كل
الأحوال، ومازلتُ أسعى، ومن يَسْعَ يلتفتُ، ولا يكونُ الالتفاتُ إلا لمن قطع
قدراً من الطريق وجرى له فقد. كما لا يصير التطلعُ إلى الآتي إلا لمن عنده
توقُّ. وشوقي دائماً إلى الأنثى في سائر أحوالها وتجلياتها، في ظهورها، في
خفائها، عبر كافة الأزمنة، لا يقتصرُ الأمرُ على وقتي المحدود، ذلك أن صلواتِ
قامت بيني وبين من يفصلها عني قرونٌ شتى وحقبٌ. ألغيتُ المسافاتِ
فتمكنتُ. اقترنتُ لذتي الحسية بمتعني المعنوية، ولهذا شرحٌ أوردُهُ إذا سمح الحال
وطاب.

تفاوتت درجاتُ معرفتي. وظلالُ الصلوات.

تمت علاقتي بالقليل منهم وبلغت، وهؤلاء خارج بشي. الحق.. أنني لم أَسعَ طيلة عمري إلا صوبَ الأتَمِّ منهم. ولا أرتجف إلا لظهور المكملات المبهرات. عند ظهورهنَّ يتردُّ أقراني خشيةً ومهابةً أو تحفزاً، غير أنني كنت أقدم، وأنابر، وأسلك طرقاً شتى حتى أسلم بريدي وتفضُّ مظاريفي، وتبادل القراءة، فالتواصلُ اِطِلاَعٌ وإِحاطَةٌ، غير أن ما تم لم يدم في معظم الأحوال لِعَسْفِ الأحوال، وصعوبة الظروف، وتباعد المسافات وقلة الإقدام، وتمكُّن الخذلانِ بعد وقوع الارتواء.

مِنْ هؤلاء قلةٌ. بل أصرِّحُ فأقرُّ أنهم لا يتجاوزنَ أصابعَ اليد الواحدة، منهم الباسقة، والنغمية، والروية، والأنثى الشهابية.

عرفتُ المطابقة، المناسبةَ لحالي، العاطفةَ، الحانةَ عليّ، الدالةَ على ما يخفى عليّ مني، لكنني لم أنلُ منهم حظي. إما لتعريي بهن في اللحظاتِ الأخيرةِ الفارقة، ولم يكن بوسعي إلا الامتثال. أو لميل الحال وانتفاء الملاءمة، حقاً.. لكنَّ امتثلت للظروف. أنا الذي عشتُ زمناً ليس بالهين أسعى إلى تغيير الظروف تمهيداً لتغيير البشر، بل حلمتُ بتغيير العالم وفاضتُ بذلك قناعاتي، فإذا بالعالم يغيّرني ويدلّني وأصلُّ إلى لحظةٍ لا أقدر فيها على تأجيل رحيلي يوماً واحداً لتحقيق الوصلِ وتمامِ الكفاية.

وعرفتُ الوافداتِ عليّ من حيث لا أدري، من لم يَسعِنَ قط في عالم الحس. أعني من وقَدْنَ إلى أحلامي فائنستُ، عملاجهنَّ، وفضتُ بوجودهنَّ، وبَعَثَنَ عندي بهجةً غامضةً شرَّحتُ صدري. وفاض مائي أثناء ضجعتي، وصحوتُ على نشوة غيبية حسية. وحتى الآن لا يمكنني الإلمامُ بلحظات وفادتهنَّ أو استعادةَ إقامتهن. إذ جئنَ وذهبُنَ، حلَّلنَ ورحَلنَ، ولم أَلِمَّ منهم بطرف، وهذا حالٌ شائع لكن تدوينه صعب. وهذا ما سأقدم عليه يوماً، غير أنني أبداً، بما هو أغربٌ وغير مألوف.

بعضُهنَّ سَعَيْنَ في مجال بصري. لم أدرك وجودهنَّ الحسيَّ. لم يمتزج عرقُهنَّ بعرقِي. غير أن طلعةَ كل منهنَّ أخذتني عني، وكثيراً ما يقصُّ المرء ما تمنى أن يكونَ لا ما كان بالفعل. والأكثرُ أنه يرى بالتمني ما يمكنُ أن يكونَ بدلاً من ذلك الذي كان.. هذا محور تدويني التالي.

لقيت معظمهنَّ في لحظات التقاطع الزمكانية الحادة، في انتقالي وإقامتي، ومن هؤلاء الأنتى الملكة. والثريا والسنبلة، والجوهرة، والبلبل، والمتكويكة. والأنتى الجحرة.. وغيرهنَّ. وإني لمورثُ تفاصيل رؤيتي وتوقعي.

نعرف ما كان، ونلم أحياناً بما يكونُ، لكننا نجهلُ ما ستصيرُ إليه الأمور. بل إننا لا نعلمُ البصيرةَ في احتمالات ما يمكنُ أن يصيرَ إليه الحالُّ المائل، ولأن ما فات صار إلى هباء. ما تحقق منه وما لم يكتمل، لذلك أَلَحَّ عليَّ إدراكُ ما كان ممكناً أن يكون.

هذا وعزُّ، فالإحاطة بما كان - حقاً وفعلاً بالمشاهدة والمعاينة - مستحيل، فكيف تصوُّر ما لم يقع أصلاً والبنیان عليه ؟

ألف

احتواها بصري عندما قصدت جزيرة البحرين يوم الجمعة بعد ظهر يوم شتوي سنة سبع وثمانين. منفرداً جلستُ في الصالة التي تسبق دخولَ الممرِّ المؤدي إلى الطائرة، أتأمل المسافرين، جنسياتهم البادية من الملامح، كيف يتصرف كل منهم. أُلحِّنُ الهويات المجهولة والغاية من الرحيل ودرجة الصلة بين كل اثنين يصلهما حوارٌ. هذا دأبي عند قطع المسافات. غير أنني في لحظة توقفت. أدركني وجودها قبل دخولها مجالَ بصري. كثيراً ما اتفق لي ذلك مع

الإناث الحاضرات، المشعّات، النافثات فيضهنّ. لم أتلّفت، إنما كنتُ شاحداً
كافةً حواسي. حتى أصغيتُ إلى ذبذبات صوتها، إلى تضويّه تالّله، مرتٌ من
أمامي فأدركتُ أنني على شفا من جوهر الحرف.

الألف ١

قوامها متوحّدٌ بذاته، ليس بحاجة إلى ما يسبقه أو يليه، سياق جسديّ
خلوّ من أيّ متيل، حالٌ مستمرٌّ لا ينقطع ولا يكفّ، سامقٌ.. لكن في غير
إفراط. لا نهائي ومحدودٌ في الوقت عينه، صاعدٌ أبداً، يحدد ما فوق وما تحت.
عنقٌ مواتٍ وشمخةٌ ملكيةٌ. إنسانية. قوامٌ جليّ، ناصعٌ، رغم انبساطه إلّا
أنه يلمّحٌ بشرفتي صدر ناهد. وأرداف متينة. مزدهرة. استدارتها متصلةٌ.
مكتملةٌ. كل امرأة كوكبٌ بذاتها، والنجوم دائرية التكوين والمسار. هكذا..
كل امرأة دائريةٌ، لا تكتمل إلّا بتكوكبها مع غيرها. إلّا أن سموق تلك طاعٍ،
مهيمن. عمٌ واحتوى.

ألفٌ هي. تبدأ مثل الحرف من نقطة وتنتهي في نقطة، منها تتوالد كافةُ
الأشكال، المستقيمة والمنحنية، الناقصة والمكتملة، هكذا يكونُ الألف، فلتمعنْ.

إنه وحيد. مكتمل بفرديته. كل الحروف تتشكل منه، لكنه لا يأخذ منها
ولا يحتاجُ، هكذا بدتُ في خطوطها المتمدّدة النزيه. في ارتجافات قَدْها. في تطلّعاتها
العلوية، حتى بعد جلوسها.. كأنها لم تنش. أَلِفٌ في قعدتها. في انحنائها، كلها
طلّعتُ ومناوأةٌ وتحلّ.

عبر التحليق صرّتُ في مجالها البصري، أتقدّمها بصفين من المقاعد. إذا
تطلعتُ بطرف عيني ألحوها، إذا التفتُ لا أقدر على الاستمرار فأنتني. عيناها
خضراوان. بشرتها سمراءٌ وجهها متسقٌ مع قوامها المبدئي، تنفذ موجباتُ
صوتها إلى صميم سمعي، تلغي هدير الأعالي. كلُّ ما عداها، تتحدث إلى طفل

صغير، بين التاسعة والعاشره، تحاوره كَينْد، لم يصلني صوتُه قط، ربما لشمولها ما عداها.

حقاً.. لم أُلح طوال الرحلة غيرها. الآخرون أطياَفٌ ولا قسماتٍ واضحة. بعد انقضاء المدة لا أقدرُ إلا على استعدادِها هي، خطواتِها، شروعِها عند المشي كالراية، اختزلتُ السوابقَ واللاحقَ، وكلما استعدتُ أو رأيتُ أو جالستُ أو أصغيتُ أو خلوتُ بأنثى أطلع عندها قبساً، غير أنني لم أرصد ملمحاً منها عند الأخريات.

خرجنا.. مر طویلٌ مؤدٌ إلى صالة فارقة، إما المضي إلى مكاتب الجوازات لدخول الجزيرة، أو الاستمرارُ إلى صالة العابرين المتجهين إلى نقاطٍ أخرى من المعمورة.

أبطأتُ حتى تتقدمني. وأسعى في إثرها، التابع يرى ما لا يَطْلُع عليه المتقدم، ثم.. كيف يمكن سبقُ أولِ الأجدية؟ هل قبلَ البداية بدايةٌ؟

تهادتُ ولم أضلَّ عنها، حتى بلغنا تلك النقطة، افرقتُ خطانا، هذا حتمي. قدَّرتُ أنها متجهةٌ شرقاً. من هنا يبدأ عبورُ المحيط الهندي ثم الهادي.. لم أفكر في القارَّات، غير أنني رأيتُ مياةَ المحيطات والطيرانَ فوقها ساعاتٍ طوالاً، ستخلق عبر الفضاءات العُلى مودعة أترأ خفياً لا يبدو إلا لمن أدرك واستوعب!

آخرُ ما لَحْتُه منها الهامةُ المؤطرةُ بشعر غزير ناعم، تُرى.. أي مدينة؟ أي فراش يتمدد فوقه هذا القوامُ المبدئي. الفأرة، الناعم؟، كيف لم أقدم؟ كيف لم أفتعل الحجة للوقوف على الحد الأدنى؟ تركتها للفضاءات التي تحتوي المحيطات، غير أنها وفَّدت عليّ من حيث لا أتوقع، بعد زمن غير قصير.

جرى ذلك عصرَ يومٍ قصدتُ فيه البحر. كنتُ بحاجةٍ إلى الانفراد، إلى مواجعة الأفق غير المحدود، المتحدد، إلى تتابع موجه، إلى صفاته. إلى أبديته،

منذ سنوات يفاعني اعتدتُ المحيَّة إلى موضع بعينه من شاطئ صخري غرب قلعة قايتباي، حدَّ الميناء الشرقي السكندري العتيق، أحيَّ إلى الأمواج والمدى كمتأملٍ وليس كسباح. فلم يسبق لي اتقانُ العوم. هنا أنفرد بالبحر كليةً. ما من حواجز أمواج صناعية أو مراكبٍ رئيسية. إنما أفقٌ جموح يحوي نذيراً ونبوءةً بالنهاية حيث موضعٌ مغيبُ الشمس، كنتُ أصدقُ صوتهً مجتهداً في نسيان كل وجود يقوم ورائي، عندما ظهرت أمامي.

تتقدمُ صوبي، نخوي، يقصدُ قوامها الفارة جهاتي. ورغم أنها آتية، مقبلة، إلا أنني لم أرها إلا جانبيةً تماماً كحداريات المعابد القرعونية، حيث تطالعنا الوجوه في أوضاع مغايرة. هكذا لاحَتْ عندَ ظهورها مرتديةً ثوبها القاتم الذي طالعُها به عندما وقعتْ عيناها عليها أول مرة. لم أر قدميها، كانت تخطو فوق الأمواج المتلاحقة. واثقة، لا تميلُ مع الهوى. داعية، أمرّة، ملبية، شخصتُ..

شبَّ داخلي بهت، لم أتوقع، خاصةً أن ظهورها اقترنَ باندلاع الرغبة، مع أن محاولاتي خلال استدعائي لها بالمخيلة لم تسفر عن تجريد قط. لم أقدر على تخيل تضاريسها الأنثوية. أو استنتاج أمرها عند بلوغ ذروة النشوة، وهل ينفرط عقدها أم يبقى متماسكاً؟

صار أمري مختلفاً بالكلية عند رؤيتي لها، قادمة. واثقة، أولُها في البحر، وآخرُها في الفضاءات العُلَى، منها يتدفقُ الموج، ويبدأ القطرُ، تعيلُ المافوق بالما تحت، فراهتها. اندلاعها المشبوب، المستمر. المتدفق. فمت.

غير أنني وإي، كالنقطة المحاورة للألف. كانت حضوراً وكنت مجرد إشارة. موبجةً صدى، مدتْ يدها. لم أدر.. أهْيَ دعوةٌ أم أمر؟

نزوعٌ لم أعرف مثيلاً له قط. تأججٌ لم أبلغ مثله حتى في سنوات اكتمالي الأولى.

صرت مشدوداً إلى يدها الحاضرة، الحازمة، المغرية، تطلعتُ حولي، إلى
الصخور الأزلية. إلى المباني البعيدة، إلى البرّ الذي سعت دائماً فوقه، وفي
لحظة بعينها لفتني إيماءاتها المشجعة، أن أمضي صوبها، أن يكون اللقاء في الماء
وبالماء. بدأتُ خطوي وعبارةُ تزدّدُ عندي لم أدر مصدرها.
"هذا أوانها.. هذا أوانها.."

الملكة

مثلتُ في رحابها مع بدءِ تعدّدِ أسفاري، قبل بلوغي العشرين بعامين
شرعتُ في الرحيل إلى قرى ومدن في الوجهين: البحري والقبلي والواحات
لمتابعة تنفيذ ما نصممه في المركز الرئيسي بالقاهرة من نقوش وزخارف
الأسطة الفارسية والتركية والصينية والمغولية والعربية والفرعونية. أنفقتُ
سنوات من عمري في دراستها وإتقانها والإلمام بأسرارها وكذلك صبغة
الألوان ودرجاتها وأطيافها ولذلك حديثٌ قائم بذاته.

لا أذكر جلالها إلا ويتداعى إليّ وداعُ أبي لي لحظة ركوبي القطار متجها
إلى الجنوب في أول مهامّي، خرج رحمه الله ورائي لتوديعي وإغراق حنوّه عليّ
في أول مرة أفترق عنه منفرداً، ومنذ أن بدأتُ ذلك الصباح لم أكفّ. لحظة
تحرك القطار، تلك الحركة البطيئة ما ثلّة دوماً. علامةٌ عندي، أعود إليها في
أزمنة شتى. وأمكنة قصية، تلك لحظة لي وقفةٌ بشأنها، إزاعها.. لكن في
تدوين آخر.

قصدتُ الجنوب. والرحيل إلى "قبلي" عندي تلبية للتوقّ والنزوع والتماس
اللجوء عند المقصد والمرجع، هنا أولُ هواءٍ تنسّمته. أولُ أرضٍ مسّها وجودي

الدينوي، وخلال تلك الرحلة لم أفكر ولم أتوقع رؤيتي لها عند وصولي مقر إقامة، "دير الجنادلة" ..

بعد انقضاء ثلاثة عقود حري فيها ما جرى. ونالني ما نالني، لكنني لا أصغي إلى الاسم إلا وأهفو، يتردد عندي نغم قديم يمهّد لحضورها، لبهاثها، تبدو كما وقع بصري عليها أول مرة، كأنها ماثلة، باقية حتى الآن كما هي، لا يدرُكها تغير ولا يلحقها بلى. دائما صادحة الألقى. مُبشّرة. "دير الجنادلة"

بيوت مطّرة بالخيل. وأشجار الدوم. وقنوات المياه الفياضة برائحة الخصوبة. وتراكم البوص فوق البيوت، وتمخطر الأوز شاهق البياض في الطرقات الضيقة آمناً من كل سوء. الرائحة العلامية، مزيج من دخان الأفران، وتنفس النبات. وحضور عناقيد العنب. وثمار التين. ونضج البلح.. عناصر شتى تجسّد حضور التفاصيل القديمة المدونة على جدران القبور والمعابد ودهاليز التيه. البلدة أكبر من قرية وأصغر من مدينة، تقع الوحدة الإنتاجية فوق موضع خارجها، بناء قديم تحوّل إلى مقر. آخر ما يخطر على بال أي إنسان مواجهتها في هذا المكان المتواضع. أن يواجه جلالاً قائماً مؤثراً، غير أن هذا ما جرى لي. حتى الآن لا أدري لماذا اتجهت إلى تلك الوحدة، نسيت السبب، المؤكّد أن مصنع السجاد الذي أقصده في مكان آخر، الوحدة تتبع الشئون الاجتماعية، لا أدري أيضاً.. من صحبني أو صحبت من؟ غاب كل ما عداها. وحتى الآن إذا ورد هذا البلد على خاطري أو مررت به أو سمعت فلا أرى غيرها. استعادة اللحظة الأولى من الأسباب ! تنداعى عندي أوصافاً...

مرمية

فيضها

خيرتها الباقية

إشعاعها الذهبيُّ على ما عداها

سموَّقها. تَلَأَوُا نُغْرَهَا إِذْ تَنْفَرُجُ شَفَتَاهَا الرِّائِثَانِ، المَرْتَوِثَانِ، المَتَوَرِّدَتَانِ،
الْمُتَأَهَّبَتَانِ، الْخَفَرَتَانِ، الدَّاعِيَتَانِ، الْحَاضَتَانِ، الْمُنْذِرَتَانِ أَيْضاً. حَضُورُهَا يُوْنِثُ
الْمَكَانَ، مَعَهَا لَا يُمْكِنُ النَّظْرُ إِلَى أَرْضٍ أَوْ سَمَاءٍ أَوْ جِدَارٍ أَوْ عَتَبَةٍ، لَشِدَّةِ بَثِّهَا لَا
يُمْكِنُ الشَّخُوصُ إِلَيْهَا، إِنَّمَا يُضْطَرُّ الْإِنْسَانُ إِلَى الْحَيْدَةِ بَعِينِهِ، كَيْفَ الْأَمْرُ إِذْ
مَعَ الدَّنْوِّ وَعِنْدَ الشَّرُوعِ فِي لَمْسِهَا.

عَيْنَاهَا طَازِجَتَانِ، رَأْسُهَا مُتَسَرِّعٌ. جِبْهَتُهَا مَرْفُوعَةٌ. أَمَّا صَارِيهَا فَأَتَسَمَّ، وَرَغْمَ
الْهَيْبَةِ، وَحَيَازَتِهَا سُلْطَةُ الْجَمَالِ الرَّادِعَةِ، إِلَّا أَنَّهَا حَاتِيَةٌ، دَافِقَةُ النُّطْقِ كَحَلِيبِ
النُّوْقِ الْفَائِرِ الْخَارِجِ لِنَوِّهِهِ مِنْ تَلَافِيْفِ الضَّرْعِ، أَمْضِيَتْ سِنَوَاتٌ مُتَتَالِيَةٌ لَا
أَسْتَدْعِي ثَبْرَةً إِلَّا وَيَسْتَنْفِرُ الْقَشْعِرِيرَةَ دَاخِلَ فِقَرَاتٍ ظَهْرِيٍّ. مَعَ تَقْدِمِيٍّ عِبرَ
الزَّمَنِ أَوْ تَقْدِمِيٍّ بِي رَاحَتٍ مَلَأَتْهُ تَنَآيٌ، هَذَا عَهْدِي بِالْأَصْوَاتِ. إِنَّهَا أَوَّلُ مَا
يَغِيبُ، أَوَّلُ مَا يَتَحَبَّبُ مِنَ الْمَلَامِحِ. هَذَا مَا فَصَلْتُهُ فِي كِتَابِ التَّجَلِّيَّاتِ، فَلْيَرْجِعْ
إِلَيْهِ مَنْ شَاءَ، فَلَمْ أَقْدِمُ عَلَى تَدْوِينِهِ إِلَّا إِشْهَاراً لِلْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ
النِّسْيَانِ. رَاحَ مِنِّي صَوْتُهَا غَيْرَ أَنْ فَيَضُهَا مَا زَالَ مُدْرِكِيٍّ.

بَقْدَرٍ مَا كَانَ وَحُودُهَا حَاضّاً، أَمْرًا، مُحْرَضّاً عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَيْسَ
فِي مَدَارِهَا فَقَطْ، بَقْدَرٍ مَا كُنْتُ مُضْطَرّاً إِلَى الذَّهَابِ. إِلَى الْمَغَادِرَةِ. وَلَمْ يَكُنْ
ظَرْفِي مُسَاعِداً عَلَى بَقَائِي بِحَضْرَتِهَا. وَلِزُومِي بِالْإِطْلَاقِ.

لَحِظَاتٍ دَامَ اللَّقَاءُ، خَلَّالَهَا عَمَقُ إِيمَانِي وَكَبَتْ قَلْبِي. لَكِنْ أَحْزَانِي الْمُبَكِّرَةَ
سَلَكْتُ طَرِيقاً مُسْتَحْدِثَةً عَلَيَّ، لَكُمُ فَاجَأَتْنِي فِي أَوْقَاتِ انْفِرَادِي، خَاصَّةً فِي
أَسْفَارِي أَوْ عِنْدَ جُلُوسِي بِأَمَامِ الْبَحْرِ.

الْعَجِيبُ أَنِّي رَغْمَ اسْتِيعَابِي لَوَثَارَةِ جَسَدِهَا إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْتَدْعِهَا إِلَيَّ عَارِيَةً
قَطْ. رَغْمَ تَعْرِفِي عَلَى قِسْمَاتِهَا مَعَ حَشْمَةِ التَّوْبِ. لَمْ أَرَهَا إِلَّا وَاقِفَةً. رَغْمَ أَنَّهَا
كَانَتْ قَاعِدَةً، رَانِيَةً.

بجرد ظهورها أنعمي ولو كنت في جمع، أطأطئ هامي حتى لو ضمني
حشدٌ. أقومُ بأداء مراسمي عند ظهورها لي، تماماً كما رأيتهَا أولَ مرة. وحديثي
في ذلك يطولُ غير أنني أقصُرُ خشيةَ الإملال.

غير أنني مورّدٌ ما جرى في تلك الضاحية من مدينة موسكو سنة سبعة
وثمانين. عندما دعيتُ صاحبةً لي إلى تناول الغداء في مطعم ريفي داخل غابة
مجللة بالثلوج البيضاء. حرارة ما دون الصفر بخمس وعشرين درجة، هذا
غريب، حديد عليّ، غير أنني كنت فياضاً، مغدقاً بغير حساب. بالغُ أوجَ عشقٍ
مباغت. طام. في اندفاعته الأولى حيث يختلطُ كلُّ شيء بالأبد، ويظن المرء أنه
ساعٍ أبداً، وأن الحال مقيمٌ، لن يزول.

مناضدٌ خشبية، بدائية الحضور، أطباقٌ معدةٌ مسبقاً. لفت نظري نومٌ
خلل، شرائحُ كرنب مغموس في خل، رقائقُ لحم بارد. كنت نائماً عن كوني
المألوف، في موضعٍ لم يخطرُ ببالِي الوصولُ إليه يوماً بصحبة مَنْ قصَدْتُها، مَنْ
تمسّسُ مكثوني بمكنونِها. اقتربَ مني رجلٌ يرتدي ملابسَ الفلاحين الروسِ
القدامى. كث اللحية. لم أدري.. هل يعمل في المطعم أم وقد من الخارج.

تحدث إلى صاحبتِي. أدركتُ أنه يقصدني، نظراته واضحةٌ. بعد أن فرغ
قالت دَهِشَةً.

”هناك من ينتظرك بالخارج“

”أنا ؟ !!“

قمت دَهِشاً. مَنْ يطلبني هنا في هذا المنأى .. مَنْ؟

اجتزتُ البابَ المزدوج إلى الخارج بعد ارتدائي معطفي وقلنسوة الفرو
قالت صاحبتِي إن عروجي بدونها جنون مؤكد ولو.. لثوان. هكذا أعددتُ
نفسي لمواجهة الخلاء غير أنني فوجئت بجلالها في الشتاء الروسي الناصع.

تقفُ مرتديَّةُ الملابسَ ذاتها التي رأيتها بها في قبْطٍ صعيدٍ مصرَ، ثوبٌ أحمرُّ
اللون. متسقٌ بدرجةٍ ما معَ حمريَّةِ جسدها، تبتسمُ بهدوءٍ، تحيطُ كتفُ فتى
تجاوزَ العشرين. متسقٌ، فيه رقةٌ أبى، وامثالُ أمي لشدائدِ الدهر.

بدأً عندي نغمٌ قديمٌ يمتُّ إلى موشحِ أندلسي، مُؤنِّزٍ بنغمٍ من بشرفِ
تُركيٍّ، وقبسٍ من ناي السُهور. كُلُّ عندي مرادفٌ لِنَاحِيَةِ ما، لَانْخِاءَةِ ما،
لميلٍ ما في طريقٍ لم أسلكه. هذا حدُّ الحنينِ الأقصى الذي ينذرُ بهلاكٍ مبين.

أشارتُ فتقدمتُ. عند حدٍ معين :

" انظر "

تطلعتُ إلى الفتى، قالت :

" هذا ابنك من صُلبك .. "

أقدمتُ. غير أنها أشارتُ بالكفِّ فامتثلتُ. قالتُ :

" حملتُ به لحظةً لقاحِ عينيك لعيني .. "

ثم قالتُ :

" هذا عمرُ لقائنا .. "

انجذبتُ صوبه. يقيني أن عنده ما عندي، لم أقدرُ على النطق. ذُهلْتُ عما
يحيطني. عن التلوجِ الكثيفةِ والشجرِ المغطّي وآثارِ الأقدامِ المُولِيَّةِ واللحظةِ الفانيةِ
المفنيةِ. عادتُ لتشيرَ فتوقفتُ بإشارةٍ لا يمكن رُدُّها. حركةٌ يَدِها كإشارةِ الملكةِ
نفرتيتي عبر الأزمنةِ الغابرةِ على جدرانِ تلِّ العمارنةِ بحضرةِ زوجها أولِ
الموحدين. إشارةٌ مانعةٌ، حاسمةٌ، قالت :

" تلكَ لحظتي لأطلعك على من أنجبتَ ومن نسيت .. "

ثم قالت :

"مَنْ يَصِيرُ أَبَا فِي التَّرْحَالِ لَا يَتَحَقَّقُ لَهُ لِقَاءٌ."

ثم قالت :

"الْأَبُورَةُ قَرَارٌ .. وَأَنْتِ لَا قَرَارَ لَكَ.."

ثم قالت :

"إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَطْلِعَكَ لَا غَيْرَ.."

كدت أهمني. غير أن إشارة يديها حاشتني.

ضوء

كُلُّ غَرِيبٍ جَاهِلٌ .

ولأنني نزلت ديارها القصبة عابراً فلا أعرف شيئاً عنها ولن أَلَمْ ببعض أخبارها، لم يَدُمُ مُكْنًى في مجال بصري إلا لحظاتٍ مارقاتٍ. لا أعرفُ اسمها أو محيطها الذي شَبَّتُ فيه. لكنها عندي مشعةٌ، وكنيتها: الأنثى الضوء...، لظهورها توقيتُ معلومٌ. لا يحتجبُ إلا عند فتورِ الهممةِ وحلولِ الغمِّ ونوِّ الكدِّ، رأيتها في سمرقند. عندما نزلتها بصحبة جنسياتٍ شتى وبلدانٍ قصبة، احتوتني المدينة وألمتُ بأفاقها. إذ كنتُ مدحجاً بما قرأته عنها، وما عرفتُها، ما سمعته من موسيقى تمتُّ إلى أجوائها. وأشجار رأيتها في منمنمات قديمة لا عهد لي بها في موطني، وقبابٍ ومداحلٍ وزخارفٍ حزفيةٍ، لونٌ أزرقٌ غالبٌ. وأصفُرُ تداخله حمرةً، وخطوطٌ مهيبةٌ. راسيةٌ في الأعالي متضافرةٌ متعانقةٌ.

كنت في الحقيقة عالماً من جهة وجاهلاً من جهة.

أحتوي سمرقندي داخلي، تلك الخاصة بي، المنبثة مني، المتصلة بخططي ودقائق أشواقِي. ما نبثه بخيلتي، من تلك الناحية أعتبر نفسي عالماً، مُلمّاً.

لكن المدينة التي جئت إليها. القائمة في دوائر حسي، لا أعرف عنها إلا ما يفضي إلي من خلال الأدلاء والمترجمين. لو ابتعدت قليلاً عن النزل الذي أويئنا إليه ربما لا يمكنني العودة، أسمع القوم يتحدثون فلا أقدر على فهم حرفٍ من اللغة الأوزبكية.. هنا أكون جاهلاً.

شارعٌ يمتد في ذاكرتي الآن، متاجرٌ صغيرة، كراتٌ جبن مستديرةٌ رأيتُ مثلها في بلاد الأكراد، خضراواتٌ طازجةٌ ونباتاتٌ لم يقع بصري عليها، ما أراه غريباً يعتبر طعاماً وقوتاً لأهل الديار، أما مداحلُ المساجد الشاهقة والقبابُ المغطاة بقطع الخزف الأزرق والأبيض فمما أثار عجبِي.

قاعة مستطيلة في بناء عتيق، مرتفع الجدران، تصطف الأرائك والمقاعد بمحاذاة الجدران، في مثل تلك الأماكن المثقلة بتردد الأنفاس تُشجّد همي ويطولُ إصغائي إلى الزمن المولي. الآن.. وقتٌ تدويني هذه السطور يستحيل اهتدائي إلى موقعه، حتى لو قدر لي الحلول مرة أخرى فلن يكون الطرف مماثلاً. خلال السنوات الفاصلة، انهارت دولٌ وقامت أنظمة، تبدلت أوضاع، استقلت بلادُ الأوزبك، وانفرط عقدُ الاتحاد السوفيتي. وتبدلت العقائد، ما مصيرُ القاعة الآن؟ ربما أصبحت مقراً لبنك أو مطعماً، أو صالة ألعاب، بل إنني أتساءل عن الأرض التي تسعى فوقها الآن إذا كانت أنفاسها تتردد، وفي أي بقعة ثوت إذا كانت قُضيت؟ ما من إجابة شافية، غير أنني أعني امثالي للمكان، لتلك اللحظات الحاوية، باقيةٌ عندي، أرحل به، محتوياً له حتى وإن شق وصولي إليه وانتفتت الإمكانية، لم يكن المكانُ وليس الزمانُ إلا إطاراً لظهورها المورق، لكن لعانها الشهيّ لم يتمّ بغتة، إذ أستعيدُ ذلك الوقت

النديّ، ما بعد الظهر، أثق أنني كنت أتوقعها، منذ متى وكيف؟ هذا مما لا أقدر على تحديده.

بعد ترحيب وبجاملة دخل عازقان ; أحدهما يحسك آلة وترية، مستديرة، مجلوة، طويلة العنق، الثاني يحسك كماناً، أشرع قوسه ومال عليه، بعدهما ظهر ثالث، اتخذ مجلسه على مسافة قليلة. كان منحنيًا يتطلع إلى الناي الخشبي، الغليظ بالقياس إلى ما رأيت من قبل.

بدأ الثاني بتمرير قوسه على الأوتار، أناتٌ وعرةٌ، شجنٌ نفاذٌ، أنغامٌ حزينةٌ، أسبانيةٌ. سرعان ما تبعتها قطراتٌ دقيقةٌ من الآلة الوترية التي لم أرَ مثلها، تم اندلع الناي.

لم يكن هذا كله إلا تمهيداً لظهورها المشعّ، الفواح، في لحظة يصعب تعيينها اتخذت طريقها إلى الصالة، هل دخلتها وقدمها ملامستان الأرض؟ أم ساجدةً في المجال؟. أصابعها مفردةٌ، غير متضامة، متباعدةٌ لكن كلٌّ منها له وضعةٌ الخاص، إشارةٌ بمفردها. هفافةٌ، رضائيةٌ. تتحرك ما بين الظل والأصل، دائماً عند الحدود الفارقة، الراصلة، التي يصعب رصدّها. شخصتُ إليها.

أحياناً.. ألوذ بأمّاكن معينة. متفتة، قائمة منذ زمن طويل، أتدنّر بظلالها وأصدائها، وإنني لمغرّمٌ بالقباب، بقدر ما تخوييني، وتطلعني على استدارة الكون بقدر ما تفكّ أسري وتفتّق ما تبقى من وثاق. أؤبّتُ إلى قبة الإمام الشافعي المصوغة من خشبٍ عطر الرائحة، قبة قايتباي، قبة برفوق، قبة مولانا وسيدنا الإمام الحسين. ولزمتُ قبة سيدي عمر بن الفارض المتقشفة، الزاهدة، في استانبول سمقتُ بي قبة الجامع الأزرق، وتحت قبة صغيرة مضمومة، مؤثرة في جامع القرويين بفاس امتلئت وأصغيتُ.

تلك النوافذ العلوية، عند حدّ انتقال البناء من المربع إلى الدائري، يغطيها زجاج ملون، معشّقٌ، يواجه الجهات الأربع الأصلية والفرعية، داخل قبة ضريح قلاوون. ركني المئين في القاهرة العتيقة، في كل ساعة للضوء درجةٌ وظلٌّ، تنفّذُ الشمس من كوّاتٍ مدغمةٍ في الجبس، فتحاتٍ لتمرير رسائل الكون السحيق.

الثالثة وسبع دقائق بعد الظهر إن صيفاً أو شتاءً، لا أدري سرّ إتقان التوقيت، في الوقت عينه تظهر. رقرقة الضوء الخضراء على قمة العمود الأمين، درجةٌ لا مثيل لها في النبات. تجمع ما بين رواء المزروعات وجلاء الماء ورفافة النسائم ومصادر البهجة وأبدية الرياح وصفاء السرائر، تبرز الأشعة السارية بالزجاج الملون، تعبر كل ساعة فتحة مغيرة تتشكل بها.

الثالثة للأخضر .

لنلك البنية السمرقندية، المصوغة من نطفة الضوء، من تلاقح الأصفر بالأزرق بمقادير معلومة، من سر الشفق والفجر والتوق القديم. ظهورها ناعمٌ، منيرٌ للتطلع. جالبٌ للانتسراح. إذ يقع بصري عليه، أظنه ماءً مقطراً معلقاً، كأنه يؤدي إلى ألوان أخرى كلها عند حدّ ما، شخصت متخذاً وضع الرضاع القديم.. تماماً كما يأمن الطفل لحظة استقرار الحلمة المترعة وتمكنه مع سريان الدفء الحلبي.

لاهي بالطويلة أو القصيرة. دقيقة الخنصر حتى ليظنّ الراي أن ما بين نصفها العلوي والسفلي فراغٌ، باسمه رغم حزن عينها البادي، نظرتها نبوءة بتحقيق الوعود القديمة. تكوينها يبعث إلى الوعي ترتيب الزهور. وحضور ألوان ما بعد المطر، يغلب عليها الأخضر. وعندما يتحول النبات إلى ضوء يصبح سراً مستعصياً. درجةٌ من الاخضرار تنفي الخضرة ذاتها، لا مثيل لها. رجاجة لا يمكن تعيينها.

تابعتُ هففاتِ ثيابها. عند درانها، عند تمايلها المقتصد، عند تطلعها إلى
حيث لا يمكن التعيين أو الإدراك. إذ تحركُ أصابعها إنما تدل على حواف
الكون. وترسل أبلغ الإشارات إلى مكانٍ في الروح يعسرُ توصيفها.

أنا في مواجعتها غريب، عابرٌ لديارها، الخطابُ لا يتلقاه إلا المقيم، كيف
يمكن الاستدلال على العابر. الراحل من مكان إلى آخر ومن لحظة إلى
أخرى!

لم تلتق عيوننا إلا مقدارَ لحظاتٍ خاطفة. خلالها شبَّ التعلق واندلع الحنين،
تفتقتُ بذرةَ النزوع. هكذا.. جرى ذلك التوحدُ الخاطف، النادر، الحاروي
للدلالات كلها. لكنه جرى في ظرف غير مُواتٍ، ومن أسفٍ أنني جُبِلْتُ على
ردود الفعل البطيئة، المتمهلة. عندما تجد طريقها إلى النطق شفاهةً أو كتابةً
يكون ذلك في القوّتِ. الصرخةُ التي كان يجب اندلاعُها لحظةً ولوجها عالمي
انطلقت مراتٍ لكن على غير مسمع منها وفي زمان غير الذي جمعي بها.

بَسَطُ الذراعين، محاولةً احتوائها وفنائها عندها تمت.. لكنَّ حيثُ لا توجد،
حيثُ لا تمثُلُ إلّا في أفقي.

قيامي، اتجاهي صوبها جري، لكنَّ بعدَ قطعِ مسافاتٍ وانقضاءِ أوقاتٍ
وتبدلِ حالاتٍ.

تساؤلاتي نَطَقَتْها ولكنَّ على غير مسمعيها :

هل أنتِ المقاماتُ والأنعامُ ذاتها ؟

هل تتصلُّ أوتارُ الدنيا كلها بحسبك ؟

هل تنبُعُ الألحانُ منك أم من الآلات ؟

كافة ما أردتُ طرحةً أفضيتُ به لَكِنْ في أوَانٍ مغاير ،

نَدَرْتُ هَجوعِي، فُضِيَّيْ أَمْرِي بعدَ عودَتِي إلى موطنِي، كنتُ أَسْتَعِيدُهَا يَوْمِيًّا فِي
لَحْظَةِ رُؤْيِي لَهَا ثُمَّ أَفْقِدُهَا. إلى أَن أدركْتُ وهَجَ الصَّلَةِ بين كَيْنُونَتِهَا وَذَلِكَ
الضوءُ الرِّقَاقُ، لَذا لَزِمْتُ القَبَةَ يَوْمِيًّا. أَجِيءُ إِلَيْهَا فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ. إِذْ تَحِلُّ
السَّاعَةُ السِّنْدُسِيَّةُ، يَبْدَأُ البَيْتُ الدَّاخِلِي، فَأُخِيفُ وَأُشْفِئُ، أَشْخُصُّ صَابِرًا حَتَّى لَا
تُفْلِتَ مِنِّي لَحْظَةُ الانْدِلَاعِ. أَجْتَهِدُ فِي تَقْصِيٍّ مَلَايِحِهَا، وَإِذْ تَحْرُكُ الرِّقَقَةُ
صَوْبِي أَسِيلُ كَمَاءِ الْوَرْدِ، تَنْفُضُ مَكُونَاتِي، أَعْرِفُ لَذَّةَ لَا عَهْدَ لِي بِهَا، يَسْعَى
رِقَاقِي صَوْبَهَا، بِفَارَقِ ضَوْئِهَا إِلَيَّ، تَنْدَمِجُ حُرُوفُنَا وَتَعْلُقُ بِالْهَوَاءِ..

بُلْبَلَةٌ ..

لَقِيتُهَا فِي مَرَآكَشْ.

جَرَى ذَلِكَ عِنْدَمَا نَزَلْتُهَا لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، سَنَةَ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ، ضَيْفًا عَلَى
وَدَادِيَةِ سَيِّدِي ابْنِ سَلِيمَانَ الْجَزُولِيِّ صَاحِبِ "دَلَائِلِ الْخَيْرَاتِ"، أَمَا الْمُنَاسِبَةُ
فَاحْتِفَالِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ، شَعْبِيَّةٌ، دِينِيَّةٌ بِسَيِّدِي أَبِي الْعَبَّاسِ السَّبْتِيِّ، وَكِلَاهُمَا مِنَ
السَّبْعَةِ الرِّجَالِ، حِمَاةِ الْمَدِينَةِ وَأَرْكَانِ فُضَاءِهَا.

لَمْ تَكُنْ زِيَارَتَايَ السَّابِقَتَانِ إِلَّا عُبُورًا سَرِيعًا، لَمْ تَدُمْ إِقَامَتِي فِي أَيِّ مِنْهُمَا إِلَّا
لِيَلْتِنِ، كُنْتُ عِنْدَ حَدِّهَا اللَّامِرْتِي وَإِيقَاعَاتِهَا الْخَفِيَّةَ، كُنْتُ عَابِرًا، مُتَرْجِمًا مِنْ
قُرْبٍ بَعِيدٍ، ثَمَامًا مِثْلَ أَيِّ سَائِحٍ. دَائِمًا أَعْيِي عَدَمَ تَمْكُنِي مِنْ لَوْنِ بَيُوتِهَا الْأَحْمَرِ
الطَوْبِيِّ، وَامْتِزَاجِ الْفُضَاءِ الصَّحْرَاوِيِّ بِذُرَى جِبَالِ أَطْلُسِ الْمَكَلَّلَةِ بِالْجَلِيدِ. رَغْمِ
إِقَامَتِي بِهَا إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ بَعِيدًا عَنْ خَبَايِهَا وَنَبْضِهَا وَإِيقَاعَاتِ الْحَيَوَاتِ بِهَا. هَذِهِ
الْمَرَّةُ اخْتَلَفَ الْأَمْرُ، إِذْ طَالَ مُكْنِي، وَبَانَ عَلَيَّ سَمْتُ الْمَقِيمِ، مَعَ أَنَّ زَمَنِي مُحْدُودٌ،

قليلٌ، لكن.. إذا عمَّقتُ الصلواتُ وامتدتُ المودةُ واكتملَ النفوذُ تيسرتُ الإحاطةُ، أما لُقيا الأنتى والتمكنُ منها فيحققُ أقصى الدرجات، وبِه تتضحُ المعرفةُ وتتم.

لَزِمَنِي صَحْبِي من اليقظة إلى النوم. نهاراتي وأمسياتي كلها معهم، منهم جعفر الكنسوسي، وحبيب السمرقندي، ومحمد بوسكسو، وبدوي الشيرازي وأحمد التادلي، وحسّون الإشبيلي وسعيد الغرناطي وحيّان القرطبي، ومولانا الشريف محمد بن سُلَيْطِين. وغيرهم كثيرون ممن عرفوني ورافقوني، واثنتُستُ بهم.

منذ وصولي كنت متحفزاً، متأهباً، متهيئاً. ذلك أن الرحيلَ يَشْحَذُ حواسي، ويفككُ ما يقيّدُنِي، ويخففُ أحمالي، ومع كلِّ شروعٍ يغلبُ عليَّ ترقبٌ وتوقعٌ، لا يخفُّ إلا عند عودتي إلى ديار إقامتي.

باستمرار أتأهبُ لاستقبال طُلعةٍ ينتجُ عنها طقُّ الشرارة. اندلاعٌ حيرتُ تواقاً إليه، أرحوه وأرمي إليه، ذلك أنه نادرٌ عندي، على امتدادِ عمري لم يَلُحْ لي إلا مراتٍ معدوداتٍ لا تتجاوزُ أصابعَ اليدِ الواحدة، ولا يكتملُ اللهبُ إلا بوقود، وهذا يكون خارجةً وسرعاناً ما يذوبُ فيه. وإذا يَنفَذُ يصيرُ الأمرُ كُلُّهُ إلى فناء.

هذا الوهج يفاجئني بغتةً، في اللحظة والموضع الذي لا يمكن أن يخطر على بالي، ولا يسبقه أيُّ تشوُّفٍ. خلال أيامي تلك قابلت من يمكنني تسميتهن بالسرايات، ذلك أنهن ظهرن لي وكأنهن المقاصدُ التي أبغيها، غير أن ذلك سرعان ما يختفي، لا يُسِفِرُ الأمرُ عن شيء.

راحت اللحظة الفارقة تدنو عصرَ اليوم السابق على ختمٍ مقامي بمراكش. أمضي غداً إلى بيتِ صاحبِ جِهم يقيمُ. مدينةٌ أخرى. صغيرة، على حدود جبال أطلس الوسيط. خرجت عصرًا من بيت الإمام السمرقندي بحادم زاوية سيدي

سليمان الجزولي، بصحبة ابنه حبيب وصاحبنا وأخينا جعفر قاصدين مدرسة ابن يوسف عليه رحمة الله الواسعة التي شملت كافة شيء، بناءً ينزّ جمالاً وعتاقةً ومثقالاً بأنفاس الراحلين، فالخطى البعيدة، والكون الممتد، والتفاني في الصنائع والدرس لا يمضي بلا أثر. بل يترك أصحابه ما يستعصي إدراكه بالحواس المتاحة، إنما يصل سعي الراحلين شحيحاً. غامضاً، وهذا ما يفرق بين البناءات الحديثة وتلك القديمة. كذلك المدن والمواضع الدارسة. الأنفاس والخواطر والرؤى والأحلام لا تَفنى. إنما تبقى بشكل ما، تضيء رسوخاً ورسانة.

حُصِّصَ ذلك العصرُ لنفر من الأصلاء المراكشين. من أهل النكّة ورجال الطير، أما الأولُ فرواةٌ لنكاتٍ متوارثة. بعضها معروفُ الرواة والمصدر، والآخَرُ مجهولُ المنبع. ما لفت نظري طرقُ الإلقاءِ وغرابةُ إيقاع اللفظ عندي. أما أهل الطير فلم ألق بمثل لهم خلال أسفاري، ولم أسمع من صحي الذين بلغوا أنحاء لم أعرفها. كما لا أذكرُ قراءةً لنصٍّ أُخبرَ بوجود متيلٍ لهم في أي موضعٍ آخرَ بالعالم. منهم نفرٌ يتقنونَ أصواتَ الحسون، والزرزور، والكناريا. واليمام والحمام بأنواعه، لا يعرفونَ مفرداتها فقط إنما إيقاعاتها وأحوالها وعلاماتِ حزينها أو بهجتها أو غريتها عند بلوغها أرضاً لم تألفها أو أصواتٍ وهينها عند الإعياء أو أليها عند المرض أو الوقوع في الأسر، أو لحظة فقدانِ الإلف. أدهشني قدرتهم على تحويل الحروف البشرية إلى مرادفٍ لأصوات الطير. وهذا مما يطول شرحه. وقد أفعل.. لكن في موضعٍ غير هذا.

منهم الأطباء المتخصصون، العارفون بأوجاع الطير وأعراض أمراضها وطرق مداواتها بالأدوية الطبيعية الناجعة. بل إنهم أخصائيون متمكنون من مداواة نفوسها المعتلة. إنما الطير رقيقٌ، شفيفٌ، تتقلب أحواله من مكانٍ إلى آخر. من وقتٍ إلى وقت.

لن أطيل.. ليس هذا قصدي، إنما أردتُ ذكرَ ما سبقَ ظهورَها. الحقُّ أن
الأشياءَ مترابطةٌ، متصلةٌ، كلُّ منها مؤدَّ إلى الآخر وإن اختلفتْ العناصرُ
وتنافرتْ الطباعُ.

أعدُّ مجلسَ الطير في إيوان القبة. حيثُ المخرابُ الموطرُ بزخارفِ حصيةٍ.
تَنبمُ اليايسُ وتحوّلُ الجماذُ إلى أطيافٍ تستعصي على الإدراك.
صُفَّتْ المقاعدُ وجاءَ صانعُ مراكشيٍّ بقفصٍ كبيرٍ، قِبابٌ متواليةٌ مضفرةٌ
من أسلاكٍ مزخرفةٍ، يعلوه سقفٌ محدبٌ من فُرُميدٍ أخضرٍ، يوحى بقعرٍ متبيدٍ،
لكنه أكبرُ من أن يتسعَ لطائرٍ وأصغرُ من تخصيصه لإنسان.
بدأ توافدُ الجمعِ، جلوسُهم، تطلُّعُهم وانتظارُهم..
رأيتها.

بدت في مجال بصري بغتةً، لم أدر.. هل قَدِمْتُ قبلي، أم دَخَلْتُ من جهةٍ لا
أعرفُها، ظهورُها ألغى ما عداها. فيما بعد، عندما رُحْتُ أَسْرَجُ لحظاتها وأرى
في ابتعادها ما لم أُحِطْ به. وقتها أدركتُ أنها كانت تجلسُ بين اثنتين. لكلٍّ
منهما خصوصيتها وتفرُّدها، ربما لو رأيتُ إحداهن منفردةً لوليتُ الوجهَ إليها.
لكن.. مع مثولها يصعبُ تجاوزُها إلى أخرياتٍ مهما بلغن من اكتمالِ الشأن.
بُليَّةُ الحضورِ، كوتيةُ الجمالِ، مشرفةٌ على سائرِ المشهد. شيرازيةُ الطلةِ.
بابليةُ العينين، قاهريةُ المدي، قرطبيةُ الضمةِ سكندريةُ السريان، أرضيةُ الغوايةِ.
مَجْمَعٌ للآفاق. تقعدُ كأنها مَطْلَعَةٌ، مراقبةٌ لحافةِ الدنيا، متطلعةٌ دائماً.
فارعةٌ، فواحةٌ بنغمٍ غامضٍ نَفَذَ إلى أقصى نقطةٍ في أغوارِي، بدأ مع ظهورها
في دائرةٍ بصري ولم ينته حتى الآن. أحياناً يَخْفُتُ، مراتٍ يشنُدُ فيقلقلني، لكنه
ماثلٌ في كافةِ الأحوال.

على الفور رُفِرتُ. شَرَعْتُ، بدأتُ حَوْمي ومحاولة دُنُوِّي، وجَّهْتُ بصري
أو توجَّهْتُ بي، وعندما بدأ إصغاؤها مثلي إلى بُنيَّةٍ مراكشيَّةٍ لطيفة، راحت تتلو
مقاطعَ من "منطق الطير" لمولانا فريد الدين العطار، فقرةً بالفارسيَّةِ تتلوها
ترجمةٌ عربية. هزأتُ رأسها، هيئةُ إصغائها، رفيف نظراتها، هذا كله شجعتني
على سلوك هذا الدرب. بعد فراغي تقدمتُ منها غيرَ وَجَلٍ، خالياً تماماً من
ذلك التلعثم القديم، قَصَرْتُ المدةَ المتاحةَ يَبْدُلُ الخصال، وَيَقْوِي ما يَحْتَاجُ إليه المرءُ
لا غير.

لا يمكن تعيين لونها أو نسبته إلى مرجع. إذ يقع على حدود الأحمر والبني
والسمرة والأصفر المُشْتَرِّعُ بياقوتية شاحبة.

هل يجيئها صدفةٌ؟ أم أنه قَصْدِيٌّ؟ أم بلوغٌ مَحْطٍ في رحلة السَّرْبِ؟ شفتاها
تَمْتَنان إلى عالم الكناريا. كذا ملاحظها. لها عينا قَمْرِيَّةٌ وتوتُّبٌ يمامة.

شيعتُ رسائلي الخفيةَ عبر نظراتي المتقدمة، اجتهدتُ في إخفاء النية. أن
يبدو سؤالي لها واستفساري عن اسمها وعنوانها ونوعية دراستها ورقم هاتفها
تلقائياً لمن يرقبنا وذا معنى بالنسبة لها. إنني غريب. عابرٌ، والنزِيلُ الذي
أوشكتُ إقامتهُ على التمام يجوز له بعضٌ مما لا يَجِلُّ للمقيم.

هدي.. تعيينها، الاطلاعُ على اسمها ومكانها، هكذا تبدأُ الصلة.. لعل
وعسى. مع تبليغها ما بدأ عندي إن أمكن ذلك. وقد جرى الأمرُ كما تمنيتُ.
بل.. فاق ما توقعتُ. وأحياناً يكون تحقُّقُ الأمرِ مفاجئاً ومحبطاً لمن اعتاد السعي
الطويل ومواجهة الصعب!

صباحَ اليوم التالي، قبل مغادرتي المدينة بساعتين أدرتُ قرصَ الهاتف،
وعندما أتانني صوتُها تنديتُ، إذا كان لِقائي بأهل الطير وأطبائه وتراجمته أثار
دهشتي، فإن حومي حولها ومقاربتها لي أحجج عندي ما ظننتُه حُبّاً مع تقدم

العمر ، أعني اندفاعي القديمة. إقلاعي ومحاولة اجتياز الحضور المادي المحسوس، وطَّرَقُ سُبُلٍ شتى لإبلاغ رسائلي.

جاءني صاحباي. جعفر الكنسوسي وحبيب السمرقندي إلى موضع إقامتي خارج المدينة، بيت جميل في غابة النخيل. للممت حاجاتي وتحوّلتُ ببصري في أنحاء المكان مردداً ذلك التساؤل الذي يبدأ عند مفارقتي: هل سأبلغُ ذلكَ الموضعَ مرةً أخرى؟ غير أن يقيناً عندي بانتفاء إمكانية عودتي، لا أعرف صاحبَ البيتِ الخاطِ بِحديقةٍ فسيحةٍ يتخللها نخيلٌٌ مثيرٌٌ للسنن والحنين، مازال المهندسُ الذي شَيَّدهُ يحتفظُ بمفاتيحه وهو صاحبٌٌ عزيزٌٌ لجعفر. أما مالكهُ فمقيمٌٌ هناك في الرباط، يتردد أياً ما قصيرةً خلالَ أيامِ الشتاء الدافئة، سَمَحَ باستضافتي بعد أن اتصلوا به، وأخبروه بنزولي المدينة. أجهلُ عنوانه، ولا أعرفُ الطريقَ المؤصلةَ إليه. وسفري إلى مراكش مرةً أخرى قد يحدث وقد لا يتكرر، كيف أحيي مرةً أخرى ؟

احتويتُ بالبصر الحديقةَ الفسيحةَ. لونَ البيتِ الأحمر، مرتفعاتِ أطلس المكلَّلة بالثلوج كما تبدو من هنا. المدى، تموجاتِ اليابسة وأصواتِ المكان الخاصة. قصدنا فندقَ المأمونية، أمامه تنتظرني عربةٌ أرسلها صاحبي ساكن وادي زَمْ، ينتظرني في بلدة تسمى "بني جرير"، عنده أفضي ليلتين ثم أفلح عائداً إلى الوطن، فارقتِ السيارة في ساحة الانتظار المواجهة للفندق، لحظة ملامستي الأرض أيقنت أنها "هنا"، ذات الإحساس الغائم الذي لا يمكن تعيينه. سبق وقوع بصري عليها أول مرة، بمجرد عبوري الطريق رأيتهَا، تقف ممشوقة، تُشهر ألقها بجوار أصص الزهور. أندلسية التكوين.

نظرتها جانبيه. صامتة. متطلعة، بالأمس كانت ترتدي قميصاً وبنطلوناً دلاً على رشاقة معمارها، اليوم أراها في رداء طويل. قريب من الجلباب لكنه غير

فضفاض، يشي بتضاريسها ويشير إلى مقاماتها من بعيد. أشرت إليها مبتسماً، قلت لجعفر :

"إنها النظام"

قدرت مفاجأته، لم أخبره، لم أبْدِ أي تهديد لظهورها. لم أتقن حضورها. أما "النظام" فهي الهيفاء، الحساء، ابنة الشيخ الجليل الذي لقيه الشيخ الأكبر، وكانت باعناً على نظم قصائد "ترجمان الأشواق" ثم وضع التفاسير التي حاول من خلالها أن يوضح.

في وقفنها وطلتها تصرّيح، إنها تسري إليّ بقدر سعيي إليها، ربما اختلف الدافع، لكن التلاقي حتمي. فيما بعد استعدت معاني عديدة كلما مثل أمامي، تساؤل. دهشة، رجاء، غموض نبيل وسكينة لا تفارق ملامح الطيور. صافحتها، اقترحتُ عليها مصاحبتي إلى بيتها. هكذا لوحث لجعفر وهي يجواري. تحدثتُ إليها بسرعة وباقتصاد، هزت رأسها قالت إنها لم تر بني ملال وسمعت عن وادي زَمّ.

هكذا قصدنا بيتها فعلاً ولكن لنخبر شقيقتها الصغرى أنها ستتغيّب نهاريْن وليلة. إنهما مقيمتان في مراكش. ظروف دراستهما اضطرتهما إلى ذلك. أما الأب والأم والأشقاء السبعة الآخرون فمزلهم مدينة تطوان الشمالية.

بدت صامتة، منزوية، كأني طائر يتخلف عن السرب ويواجه فراغات لم يعتد سلوكها. كنت أستفسر من السائق عن أماكن غمر بها، ومدن صغيرة نعيمها بسرعة، ثم ألفتُ فأغدقُ عليها حنوي واهتمامي وأخبي حيرتي فلم يحدث أن تحقّق ما قصدتُ إليه بسرعة كهذه.

تبدو مستسلمة، منظوية على نفسها أكثر مما هي ساعية إليّ، تتطلع إلى الطريق، إلى الأفق الرحب. الأراضي المزروعة بالحشائش الخضراء، بيوت قليلة

متناثرة، إلى جبال نقرب منها بسرعة، إلى شوارع مدينة بني ملال، إلى
شلالات مياه هادرة تتدفق عبر مستويات مختلفة، أصر السائق على مصاحبتنا
إليها، طالنا رذاذ المياه، قالت :

"ما أغرب ذلك"

لم أدر أي غرابة تعني. عادت إلى صمتها، لكنها نطقت مرة أخرى عندما
تكرر البرق يتبعه الرعد، قالت :

"هذا مخيف..."

طريق خال تماماً، يصعد مرتفعات متوسطة وينزل برفق، ما من مركبة قادمة
من الجهة المقابلة. وقتاً يدنو من العصر، غير أن الضوء يخيبو، لم يعد ممكناً
تحديد قرص الشمس. تتوالى شواظ البرق. ينصهر الفضاء، ماذا لو انقضت
الصاعقة ؟

سينتشر الخير هكذا..

"هطلت أمس أمطار طوفانية، تخللتها رعود وبروق، أصابت الصاعقة سيارة
خاصة على الطريق بين بني ملال وأبي الجعد، وعثر بداخلها على ثلاث جثث
متفحمة. السائق ورجل وامرأة.."

أبتسم في مواجهة العاصفة. أن أقطع تلك المسافات ليضع البرق الوامض
جزءاً من الثانية حداً للماضي والحاضر والآتي، بصحبة هذه البنية التي لم أعرف
عنها شيئاً بعد، دائماً أتساءل عن النهاية وكيف ؟ أين ؟ متى ؟ أخشى حلوها
بعيداً عن ديارى. الاحتمال قائم خاصة أن أسفاري تعددت والوجهات
اختلفت، كافة الظروف وردت عليّ، عدا تلك العاصفة، وهذه البقاع، وتلك
الرفقة، تكلفت برعدة.. لم أر مطراً كهذا من قبل، عفوان المحيط القريب
يدركنا، ترى كيف واجه الأقدمون ظواهر الطبيعة تلك ؟

أنبه .. للحظات نسيت حضورها. غابت وهي لم تبدأ بعد، يلاحقنا
القصف الكوني، أمد يدي إلى حواف أصابعها، تسحبها مدعورة، تلملم ذاتها،
تنأى، أبتسم مطمئناً. لا تظهر علامة ودّ حتى. بل تبدي حدة ماء، يتغير لونها.
لم تعد بشرتها تنتمي إلى تلك الحدود التي يتوالج عندها الأحمر بالبني، بل
ازدادت مساحة الأصفر، طفا أزرق غامق، قدرت تأثير ذلك بتغير الضوء
وغموق الظلال وإرهاق المسافة. تُقَتُّ إلى بيت، إلى سقف يورينا. ما حشيتُه
تعطل السيارة وبقاؤنا في العراء، أتحمّل واجبات عدة تجاهها. أخيراً... نقرب.
يقع بيت صاحبي في الخلاء. على حافة وادٍ منطلق حتى الأفق، يتخلله نهر
صغير. بدا البناء بتوحده وهوائي الأقمار الصناعية المستدير الضخم فوقه وكأنه
محطة على طريق الأبدية.

لم يخف صاحبي إعجابه بجمالها. همس في أذني :

"عصفور.."

لم أبدأ تعليقاً أو دهشة لإدراكه نسبتها إلى عالم الطيور. بل إن تسميتها
بالبلبل أول ما خطر عندي لحظة إحاطتي بها بالبصر، ربما تأثرت بمجلس الطير
في إيوان القبلة بمدرسة ابن يوسف، لكن.. كيف ألم صاحبي؟

شغلت بتدبير أمرنا أمامه. بما لا يمس كرامتها أو يخدش حياعها. هو صديق
قديم عرفته منذ سنوات تقارب العشر في مدينة بولونيا الإيطالية، قابلته مرات
في القاهرة وباريس وفي مسقط رأسه بوادي زم بعد طول ابتعاد قسري
واغتراب لأمر عامه جرت في الماضي لمح إليّ ببعض منها، رجع لبدأ
مشروعات عديدة، منها مزرعة للنعام في الصحراء. يربها ويذبحها لبيع لحومها
إلى مطاعم متخصصة وليدفع مجلودها إلى مصنع ينتج الحقائق والأحذية
النادرة. اشترى منجماً للرخام، وسفناً لصيد الأسماك من المحيط، لم أعرف
مقدار ما عنده أو مصادره. لم أهتم، كنت أراه قريباً مني بدرحة ماء، وحيداً،

حزنه كامن، محوره بنية هجرته فجأة وبدون مقدمات. رأيته بصحبته في مصر، وما زلت أذكر فوحها وطلها وممشوقية قوامها. ألتمس له العذر لوجده عليها. وتلميحه الدائم بها..

لم يهدأ الرعد، بل اشتد وضافت الفواصل بين موجاته المتعاقبة، ولكن وجودنا داخل الدار بث طمأنينة وأذاب مخاوف الطريق والعراء. في البداية خلعت بنفسها داخل غرفة الضيوف بالطابق الأول، طرقت الباب، كانت تجلس عند حافة الفراش الوثير بعد أن سوت أمورها. استردت كثيراً من هيئتها التي رأيته عليها أمس، تحددت ملاحظتها أكثر. واتخذت شفتها الوضع الأرق، ملست على شعرها، قلت كلمات عن المصادفة واللحظات الأولى وغرابة اللقاء، وأكدت أن اقتراب كل منا ليس مغامرة أو صدفة، من يصدق أن تلك الحجرة تجمعنا في هذا المكان الثاني والعاصفة على أشدها في الخارج ؛ منذ أربعة وعشرين ساعة لم يكن أحدها يعرف الآخر، لقاء مقدر..

نظرت إلي مباشرة :

"حقاً"

ثم أشارت إلى الخارج :

"دار لا أعرفها .."

سعيت إلى بث الطمأنينة بدون أن أبدو مفتعلاً. الحق أنني لم أكن مشغولاً بنيلها أو مضاجعتها، ربما لأنها أقرب مما توقعت. لأن فارقاً بين الصورة التي رأيته على البعد وتلك المائلة عن قرب. ربما لأنني فاشل في إبداء تلك الاندفاعة القديمة، ذلك التفجر المروع، المثري، يتباعد أمره الآن، وكلما توهمت وقوعه أتبين استحالة ذلك، آخر عهدي به في آسيا الوسطى، أثناء ترحالي بين بخارى وطشقند وسمرقند. ألحت إلى قبس مما عرفته في رسالتي عن الصبابة والوجد.

فمن شاء .. عليه بمطالعة خلاصة أمري هناك، لكن.. يمكن القول والزمن مستمر في دفعي بعيداً عن أيام فورتني وشدة ولوعي ونزقي أن ذلك لم يتكرر. وأني منذ تلك الفترة وأمري في ابتعاد وأصدائي إلى نحو. ولعل ذلك بدء عين المفارقة، وهذا مملاً أفضل الخوض فيه الآن.

بدلت ثيابي وهي مطرقة، ارتديت جلبابي المغربي الذي أفضله، خرجنا. تناولنا عشاءً مغرباً دسماً أعدته شقيقة صاحبي، أخرجني بعملها في المطبخ نهاراً كاملاً. معاونة خادمتين، هي تسعد بذلك، صفت صواني البصطيطة، وطاحن اللحم، ثم الكسكس بالحوت، لم نكن بمفردنا، إنما جاء صاحب من الناحية، ورجل أعمال إيطالي وصديقه من يعملون في مزرعة النعام، لم تكن شهيتي طيبة، كنت متعباً ربما لطول المسافة، بدأ عندي تناقل ورغبة في القيء. شربنا الشاي الأخضر ثم مضينا إلى الصالة الكبيرة، حيث جهاز التلفزيون، لم أقدر على التركيز. كان الرعد مستمراً. قال صاحبي: إن السماء مثقلة وإن العاصفة ستستمر غداً، أخيراً.. اكتمل انفرادنا. المكان يوطرنا، يحددنا، تنعزل اللحظات، مرورنا بالعاصفة يتحول إلى صور وكلمات نستعيدها، تمدد كلانا. تفصلنا مسافة مقدار شيرين. هكذا تبدأ الأمور.

نطقت استفساراتي، أجابت بصدء، توقعت البسط مع انفرادنا. بألفاظ ضمنية حدثني عن أسرتها، عن صاحب لها في المشرق، أمير من أسرة حاكمة بدويلة خليجية، إنها تنتظره :

أين ومتى تعرفت به ؟

لم يجب ، خيل إلي أنها قالت شيئاً عن نفسها باعتبارها أميرة. فيما بعد استعدت ما كان وما قيل، أيقنت تعرضها للخديعة. أن ثمة خللاً رغم مظهرها الهادئ البادي، عندما مددت يدي، تراجع نافرة. لفت جسدها بغطاء من الصوف. شعرها المحلول أنعم، أطول، قالت بحدة :

”لن يُمس جسدي“

انكشمت، تضاعل حجمها. ازدادت بُعداً، يثقلني إعيائي. أدركتُ أنها موجودة وغير موجودة، أن حضورها مقلق. ممضٌ، لم أستأنف. إنما تحركت إلى حافة الفراش ضاحكاً ضحكة قصيرة. لم أجبها عندما استفسرت عن السبب، كان دماغي مثقلاً، وأنفاسي عَثْرَةً، رحت إلى النوم بسرعة رغم غرابة الوضعية. إلا أنني صحوْتُ قرب الصبح، ظلامٌ مازال. تطلعتُ إلى الساعة التي أضعها دائماً على مقربة، كنت منتصباً إلى حد الألم، برد لاسع..

الخامسة إلا الربع

ما هذا الصوت ؟

شيء ما يرتطم بالأرض، يرتدُّ، أتوجس، ذلك الحذر الذي يياغتني عند الصحو وانفراد الليل بي، خاصة في البعد، ألثفتُ إليها، موضعها خال، أضغط زر المصباح. لا أثر لها. عدا رائحتها. لا يمكن أن أخطئها، الوسادة في وضع مغاير، يتردد الصوت، أفارق الفراش، أحدد مكان صدره. جهة النافذة، أزيح الستارة. أفاجأ بالنافذة مفتوحة، يتدفق هواء مُشبع بالبرودة، أسارع بإغلاقها، تنفلتُ إلى أرض الغرفة. تقفز مرتين. إذن.. هذا مصدر الصوت الغريب. ارتطام جسدها النحيل، الطري. تخط يائسة. متطلعة، لا تبدي أي مقاومة، تتواجه نظراتنا. أنعني حتى أجتو على راحتي.

تفرد الجناح الأيسر. تميل برأسها حتى تثبت نظرها الأيمن تجاهي. تمر لحظات، لاتصدر عني أية بادرة، يتقلقل ركونها، يبقى الجناح مفروداً، منفرداً. فاقداً القدرة، الآخر ملموم. مضموم، كأنه غير موجود. إما جناحان وإلا.. فلا.

ماذا أفعل ؟

تنفذ إليّ النظرة المستسلمة، الجريحة، تلفتٌ حولي، فراغ الغرفة ورحيل الليل، والنهار المقبل، والوحدة.. لم يكن بوسعي إلا إبداء الحنو.

مركز

نشر فحذاها دفناً إلى سائر الجهات، شملني فاستنفر ما يتّ إليّ، رأيتهما بعد أن بلغني تضرعهما، قبل مشاهدتي وجهها والتملي من تمنم ملاحظها، جرى ذلك في القطار السريع الواصل بين مدريد وأشبيلية مروراً بقرطبة.

متى جاءت ؟

متى دخلت وتوسدت المقعد المجاور للممر؟

ربما عند التفاتي إلى الرصيف، أو لحظة إغماضي، كنت مرهقاً لقصر نومي، وصحوي مبكراً، قلة هجوعي أمرٌ أعانيه منذ سنوات، ربما.. بعد احتيازي الأربعين، أو لتواتر الهموم وكثرة الانشغال !

دائماً.. ثمة رغبة مؤجلة، ثمنتُ إغفائه ولو قصيرة، يستحيل ذلك في العربات أو الطائرات، يمكن ذلك في القطارات. هكذا تهيات، خاصة أن المقعد مريح، والفراغ المتاح فسيح، والتناسق بين درجات الألوان متناغم، لوان متجاوران، الأخضر المرتوي، المضيء. والأصفر المشعّر بحمرة خفيفة ترسخه وتمكنه، أما الأبيض الشاهق، الحلبي فمحيط، يحف النوافذ العريضة، مع بدء التحرك التمهّل. الوثير، أرجأتُ إغماض عينيّ إلى ما بعد مفارقة القطار المدينة وانطلاقه عبر الخلاء، غير أن التفاتة غيرت وبدلت أموراً يطول شرحها، كيف.. كيف لم ألاحظها؟

ترتدي سروالاً قصيراً، ما بين حافته التي تنتهي أعلى الركبتين. وحتى قدميها المدسوستين في حذاء رياضي خفيف.

حام بصري وتلّى من رواء التكوين وغزارته، محدّد، مبرّم، مُدلّ حاض. عالي القِضة. له ملمسُ الثمرِ النادرِ للعينِ الدّربة. دِفْلِي النور. شفافٌ، كهريمانِيّ الضوء، يمكنُ رؤيةِ النواةِ الراقدة، المدّثرة. لا ينبت إلا في واحات معينة من شمال أفريقيا. درجةُ صفّرتِه مذهلةٌ. سيّالةٌ، تقعُ أصداءُ بشرتها على حوافِ عده. لا يمكنُ القول: إنه ذهبيٌّ، أو صفراويٌّ، لكنه بين بين، يأخذ من هذا كله. فيه لمعةُ الإبريز، ورقةُ الشمس عند الظهور بعد احتجابٍ وراء غيم، ونداءُ البرتقال. مع قَبَسٍ من تلالُ الضوءِ المنسابِ بين فرجاتِ الأغصانِ أو الملامس لظلال الأمواج. لزغها تمايلٌ سنابلِ القمحِ المتهبّة للحصاد، تستعصي على توصيفٍ دقيق. يستمد حضوره وتأثيره من مصْهرِ الشمس. حيث الطاقةُ الهائلة، المتفاعلة، الهادرة، تجعلُه متماسكاً، قوياً. جاذباً. حافظاً لدوران كوكبنا، باعتبار القدرة. من تلك النواة الملتهبة أحد أسباب ظهورنا. هذا ما استوحيته من قراءاتي لأهل الفيزياء والفلك، مما انتهوا إليه أو افترضوه أن نجْمنا هذا في منتصف عُمره، مضى خمسة ملياراتٍ من السنين وملتأها باقيةٌ، لو لم يُخلق غيره في هذه المدة لكفى !

انبهار امتزجَ بحذرٍ حتى لا أشط. هذا حال جديد لم أعرفه، مخالفٌ لتوثبات السنين الزواهي، زمن الاندفاعات المفاجئة، والطاقات المنفردة، والفورات الكاشفة، أما الآن فتمة تودة، غير أن اللمعة الأولى لم يهن بريقها وإن كلفتني من أمري جهداً.

سرى إليّ ماء دافق، لا يمكن تجرعه أو صبه، إنما يدرك من خلال ما يثيره من رواء. وترقرق المواد الحافظة للصلوات بين الأطراف. بدأتُ أمعنُ مع أنفي ما زلت في بداية المراحل.

غزيران. متواطئان.. خاصة مع اعتلاء أحدهما للآخر، سال بصري عليهما
تمهل وركض وانحنى، هما جهد المطلع، ونضارة الإشراف على بستان مثمر،
وأمل الوعد بالتحصيل، وإيقاع الشطر الأول من مفتتح القصيد التالي.

كنت أتأهب لأقوم قاصداً العربية الأخرى وعند العودة أتملى وأمكن، غير
أنها فاجأتني بقومة مباغتة. تلفتت حولها، شهقت أمامي، عمارة أنثوية. ألمت
بالسكون الذي يتخلل لحظتين. والفراغ المجسد للعلاقة بين الكتلة والأخرى،
صلة اللون باللون ولماذا يتضاد هذا مع ذاك.

لم تكن قصيرة، ولا يمكن القول إنها طويلة أو حتى وسط، طلتها. وضعية
رأسها، يوحيان بإطار غير مدرك. يتحرك معها وبها. حليلة النظرة. شهيرة
الطلعة، علوية السميت. مشهرة الصدر. أما أصابع يديها فإشارات دالة.

عمارة منمنمة، بقدر ما توحى به من رقة، بقدر ما تتضمن من صلابة.
شفتاها مضمومتان لكنهما إعلان وبشارة، تلفتها حولها نتيجة ضجر أو فضول
أو بتأثير نحفي لاهتمامي الناشب المندلع.

بصتها الجانبية أتت إليّ باليمام. ليست عمامة. وجهها يمتد بشكل ما إلى
الطيور، لكنها من الجنس كله، أما تحديد النوع فصعب، وعمر، استدعيت كافة
ما أعرفه من أسماء الأنواع المختلفة. الورشان. الكناريا، البلابل، الزرازير،
العصافير؟! عندما قابلت بنية مراكش، برّق وعيبي على الفور بلفظ واحد
"بُلْبُلَة"، غير أن هذه الضوئية حيرتني، فريدة بالفعل، لا أقول ذلك لأنها في
جمالي الآن. الغالب على المرء تقليل شأن ما مضى بالقياس إلى المائل بالفعل،
خاصة عند تعلق الأمر بالأنثى، غير أنني أستعيد من عرفت، أجتهد في المقارنة
بمن رأيت. فلا أجد لها مثيلاً، ولا أقدر على التحديد، إنها منزلة جديدة في
تراثي.

ظهورها متزقق، هادئ السريان رغم تدملج المحسوسات مع اكتناز الفتنة
وفيض الغواية، أثارت عندي هدهدة، ورغبة في الإيواء إلى العش. إلى الكينة،
والحديث هادئ النبرة، والإصغاء على مهل، مع الإيماءات الباعثة، والنظرات
المخمسة، من قبل.. كان ظهور مثلها في مجالي كفيلاً بإثارة كوامني. وبعث
الرجفة، وبث الزلزلة.

دارت حول نفسها، فأيقنت أنها تلامس الأرض بأطراف أناملها، أيضاً..
تمكنت من معالمها الخلفية. وأمسكت أنفاسي تحسباً لذلك الاتساق المفرد بين
استدارتين محكمتين، وبروزين مباركين. صدرها وعجزها. إفراط مبتوت
واكتفاء عجب !

حاطبتها بالنظر وسائر الحواس، ما خَفِيَ منها وما ظهر عدا النطق، تالياً
ألفاظ المناحاة والمناغة القصوى. ومالا أقدر على البوح به. فما أغرب أمري.
وما أكثر انطوائي على كثير لم أقبله، كتمته ولم أعلنه، ولو جرى القياس بين ما
بُحت به وما حُشته لكان الفارق شاسعاً، رغم كل ما قلته وما دونته، تماماً
كالصلة بين القطرة والمحيط.

آه .. لو أن شجرة ألفاظي أينعت وأظهرت مكنونها، غير أن حال الصمت
غلب، والكتمان طغى. وها هي الرحلة موشكة على البلوغ ولم أتفتح قط.

لزمته بنظري، لم أجد. أحياناً أتسلل بالبصمة، لكنني الآن راغب في توصيل
بريدي مفضوضاً. مشهراً، الوقت مسلول، والحدّ دان. تلامس حصّرها بأطراف
أصابعها، تماماً كما تقف. لها لحظة نضج الثمرة، تليق، ترق، يبلغ فوحها
السُّكري مداه.

تجاوزت العشرين، المؤكّد أنها دون الثلاثين، ذات صلة بالحياة الجامعية،
دراساتها علماً، نظارتها رقيقة الخواف. ذهبية، تطلعت طويلاً إلى لوحات

معلقة. وثمانيل منحوتة. وصفحات مطبوعة، وشاشات مختلفة. وارتادت
مسارحَ في مدن كبيرة وأخرى صغيرة.

تواجهني بأوضاع مختلفة، كأنها أدركتُ. حاولتُ الإحاطة مع التجول، غير
أن فحذيها دعامتان، منهما يبدأ التكوين، لهما المبادرة والتمهيد، لغزارة ما توالى
عليّ. وليتُ وجهي إلى النافذة لأتمكن من الاستيعاب. أشجار، تلال، قوى
صغيرة. بيوت مفردة، أفراد قلائل، عربات، طيور، أحجار متناثرة، كل شيء
يتدفق مترجعا إلى الخلف..

من خطأ هناك ؟

من تطلع إلى الأزمنة الآتية ؟ . إلى المنقضية؟ إلى السماء الصريحة، الصحو،
لا تدركني غربة عند النظر إليها. ثمة ما ينتمي إليّ هنا رغم تغير الأوقات،
والقوم. وجود خفي لم يتت، بل إن هذه البنية ذات الغصن الرطيب مألوفة
عندي، كأني طالعت أوصافها في أحد مصادر الزمن الأول، حَاولْتُ استعادة
آيات الشعر العتيق التي تصف بشرة شهباء مماثلة. غير أن ذاكرتي تحتفظ بجوهر
المعاني، لا تقيّد حرفية النصوص.

أنثني إليها، إلى مدارها. أبأغت، تتطلع نحوي. تتداخلُ نظراتنا لحظات،
بصائرٌ مارقة، غير أنها نافذة، مصائر تتحدّد عبرها، جرى لي خلالها أمورٌ
شئى سأذكرها في موضعها. أسدلتُ القناع القديم، طالما أجهضُ وأحبط.

واحطّتها بالدهشة، كأني مُباغتٌ بلحظها. أشاحتُ بعد أن لاحَتْ
وشيجةٌ، تساقطٌ داخلي برذٌ. أي فرصة أفلتتُ؟. لُمْتُ نفسي. لماذا لم أبتسم؟
لماذا لم أظهرُ الود؟. فلأحاولُ استنفار ما تبدّد، ما يساعدني على التمكن.

هكذا.. تهيأتُ من حديد عندما قمت لأتناول حقيقتي الصغيرة. السرعة
أقل. مذيع داخلي يعلن بالأسبانية والإنجليزية بلوغ قرطبة. التماس مع المدن

للمرة الأولى باعث على متعة ورؤى، يصاحبه تأهب وانتفاض كوامن، تماماً
مثل اكتشاف أنثى للمرة الأولى.

أمد يدي متجاوزاً رهاقتها اليمامية. تلتفتُ، أبتسم، تجاوبني، تسري عندي
البشارة، تزهمني شقرتها، لعلني أندمج بتكوينها ويتعطر داخلي برحيقها. أدفع
الباب إلى آخر المدى. تتقدمني.

رصيفٌ "فسيح". محطة معدنية الحضور، قضبانٌ سوداء، أسلاك كهرباء،
سقف محدّب، سلام متحركة، لا ألقى أدنى إشارة إلى نزولي قرطبة. للاسم
علاقة بالمكان أو الإنسان. هذا ما شرحته في موضع آخر. أين القرطبة إذن ؟

لم أرَ بشاثرها إلا فيما وصلني من تلك البنية التي تصل ما بين الإنس
والطيور، تجاوزاً... نَسَبْتُها إلى اليمام، عند طلوعها الدرج توقعت انفصالها
وتخليقها، تذكرت صاحباً لي في بغداد تعرّفْتُ إليه عند إقامتي بها زمناً لا أدري
كيف أعده أو أحصيه إذ يرتبط بأغرب ما مرّ بي. ولذلك أرجأته إلى آخر هذا
الدفر. صاحبي هذا كان اسمه محمد القيسي، من أهل الفن والطرب، ذاع صيتهُ
في التمثيل، واقتناء الأشرطة القديمة، كان خبيراً بالمقامات والأنغام والأصوات،
كافة ما يصدر عن البشر أو الحيوان أو الطيور أو تجليات الطبيعة، من مطر
ورعد وبرق ونزول ثلوج، وتدحرج صخور، وخرير مياه. واحتراق شهب،
وكان يكرر لكل من يعرفه أن أجمل وأعظم صوتين عرفهما، أم كلثوم ومحمد
القبنجي، بعد تقاعده، وكفه عن الظهور في التليفزيون، أرسى حلمه في مقهى،
أقنع المسئولين في أمانة العاصمة بإنشاء مقهى على الطراز القديم ليحفظ معالم
يهددها الاندثار، الأرائك الخشبية المستطيلة، النرجيلات البصراوية، البغدادية،
ذات الرشاقة الانسيابية، والتبناك غزير الرائحة، طاسات المياه النحاسية بدلا من
الأكواب، علّق إلى الجدران لوحات لأشهر المطربين القدامى. من مصريين
وعراقيين وشوام، وجمع عشرات المواقد القديمة، وأواني غلي الشاي، وإعداد

القهوة، وشراب الليمون الحامض، وسماورات روسية من القرن الماضي، وطيور شتى من كل نوع اثنان، ذكر وأنثى، فوق منضدة مستديرة. يتوسط الممر المؤدي إلى مدخل المقهى المنمنم، قفص مفضض، فسيح، يسكنه البلب العراقي وأنثاه، حكى لي محمد القيسي عنهما فقال إن صوته من أعذب ما سمع، غير أن ما يميزه وما ينفرد به طريقته في الجماع. إذ ينطلق إلى أعلى مرففاً، مزهواً وفي مواجهته أنثاه، وإذا يبلغان المدى، يلتصقان في توالج حميم، دافئ، مخلق، متزايد ويدوم ذلك مقداراً.

أين ؟

كيف ؟

أي احتمال ؟

منذ لحظات كانت أمامي فوق السلم الكهربائي، تتقدمني، تعلنني بدرجتين، كافة معالمها الخلفية، تمتازل بصري، أنقشها في ذاكرتي، أتملى، عند بلوغنا المخرج وقفت تتطلع إلى لوحة المواعيد. خست سوء الفهم. فضلت الوقوف على بعد خطوتين، إنه الخجل القديم. واستكانتي لرجيع سنبها. يتدفق العابرون. يمكنني تحديد اللحظة الفاصلة، بعد أن حَجَّهَا عني مرورُ شابة ممشوقة، صارية القوام، تحمل حقيبة على ظهرها، عبورها صاحبَ اختفاء صاحبي، خَرَجَتْ من مجال بصري.

هُرَعْتُ غرباً، انتنيتُ شرقاً. تطلعتُ إلى الدرج النازل. إلى المخرج، إلى من ينتظرون عربات الأجرة، حتى وصلت الحد الذي يوقن فيه المرء من عبث المداومة.

وقفتُ حائباً، غَيْرَ الحظ، وقتي قصيرٌ، موَطَّرٌ بمدة، مجرد ساعات، سائق ذو شارب كث :

"الموسكيتا .."

أولاً، فتحتُ الباب الخلفي، في مصر أجلس بجوار السائق، هنا أحرص على مسافة حاحزة، إني غريب، ولعل حذري يمنع أمراً. ما بين ندمي على تبديد الفرصة المهدرة في القطار، واحتوائي المدينة، قطعتُ المسافة، بلغتُ نهاية الطريق الضيق، من هنا تبدو الأسوار الكهربائية، من المحطة إلى حيث أقف مدينة حديثة، بيوتها متشابهة، نوافذها مترابطة، لا تصرح بِسِمة. ولا تفضي بلمح، لكن.. بمجرد ظهور هذا الجزء الصغير من السور القديم تفتقتُ معانٍ. وتمددتُ أبعاد

تري.. أي نقطة من المدينة بلغتُ الآن ؟

أين تخطو ؟

ماذا ترى ؟

إلى من تتحدث ؟

أستعيد ملاحظها فأرى ما لم أطلع عليه وقت تحديقي إليها. طفولة ملاحظها وصفاء عينيها عبر المنظر رائق الشفافية، شمعة عنقها، ثُبُولِيَّة شفتيها.

أين هي الآن .. أين ؟

مع تقدم خطاي تزداد المساحة المرئية من سور المسجد، أتمهل.. أعني تعاقب التعابير على ملاحظي. ذلك أني أثرت الجحى منفرداً. حتى أصدر من رسائلي إلى البناء ما أشاء، وأناغي الأحجار، وأحاطب النقوش، لعل وعسى.

ذلك حد السور الغربي، مرتفع، أدركه في بحمله، غير أن إشراقة مفاجئة تستدعي لحظة مقاربة شبيهة، وهنا لا بد من تأنٍّ وفحص لما أعني.

للمعمار شأن

من ممن الباري عليّ. تنفلي وأسفاري. وقد بدأت قبل تمام وفادتي إلى الحياة الدنيا، عندما سافرت أمي من القاهرة إلى جهينة وأنا بعدُ جنين أُنكون وأُكتمل في رحمها. وهذا ماصرت إليه، فلم يكن تمامي إلا مع تعدد مرات رحيلي، وهذا موضوع يطول الحديث فيه. له محل مغاير، فيه تفصيل كثير، يمكن مطالعته في دفتر الأسفار. وعند توقفي هنا أو هناك. أسعى دائماً إلى المعمار، إنه آخر ما يبقى من الإنسان، يتحلل المأكَل، والملبس، وتندثر الملامح، تمضي إلى عدم. ويبقى النحت، والأسس، والعلامات الدالة، تعقب الآثار الخفية، والسمات الشاردة من هنا إلى هناك، وقفت مرات في سمرقند. في بخارى، في صحراء جوبي، في بغداد، في دمشق، وتندثرت بظلال السلطان أحمد والسلمانية، واحتوتني القباب. والمداخل المؤدية لحظاظ احتيازا وبدء النقلات، في مراکش وفاس ومدينة تونس. والقيروان، أما مُرْتَكِزي ومرجعي فذلك الموروث القاهري، منه أبدأ وإليه أرجع. عندما نزلت مدينة موريليا - سيأتي ذكر ما جرى لي فيها - لاحظت الأقواس والحنيات. والحدائق الداخلية، حمل الأسبان المهاجرون تقاليد العمارة العربية الأندلسية، جرى تلاقح مع العمارة الهندية القديمة فأثمر حضوراً خاصاً وفريداً، وكل من تميز تفرد، وبقدر إمعاني البصر في العناصر المشتركة. بقدر محاولتي تجسيد الانتقال والهجرات والمضي من مكان إلى آخر، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة ومن معلوم إلى مجهول، يحوي الإنسان ما لا يعي تفصيله أو جملة. تم يجيء من يتمي إلى زمن آخر بعد اكتمال الدثور. وتحقق الفناء لمن رحلوا. ونقلوا وشيدوا أو تركوا أصداء أنفاسهم على الجدران. أو أبواب المقابر والمعابد، تنجلي بعض الحقائق، والخبايا، لكن، يظل ما يستعصي دائماً على الكشف، وبقدر عمن الخبيئة يكون انتقالها من زمن إلى آخر.. هكذا.

عندما رأيت جدار جامع قرطبة رصدتُ فيه جدار جامع القيروان في ديار
تونس الخضراء، في القيروان البداية، وفي قرطبة ذروة الرحلة والاستيعاب، هكذا
تمتدُّ الوشيجةُ تلو الأخرى، وتتصل الأسباب.

زمنَ البناء في القيروان، وزمنَ البناء في قرطبة، أين كان أحداؤها، وأين
كان أجدادي ؟

مع اقترابي أُشْرِفُ على أنفاسَ الذاهبين وإبداع المجهولين، ونداءات خفية
منبثقة من فسيفساء دقيقة، ونوافذ كهمة الوصل بين خارجٍ ودخل.

إنني على شفا

ألملم كافة مامرتُ به من لحظات مقاربة، ما يسبق عبور الحدود الفاصلة،
وبداية لإزاح المراسي، عاينتُها عمري كله، عند اقترابي من بدايات المدن التي
أبلغها أو أنزلها أول مرة، كذا قراءة الصحف الأولى في كتاب أجهل مضمونه
ولم يسبق وقوفي على محتواه. تماماً كشروعي في تحسس آفاق أنثى تمهيداً للتواج
والتكويب بين المدارات، لحظات الاقتراب تلك من أحلى ما عرفتُ، إنها
جوهرٌ، وما يليها ترديدٌ، إنها مجملٌ وما يتبعها تفصيل.

أواجه البناء.

يдай وراء ظهري متلامستان، حقاً.. مهما أطلت، مهما ألمت بالقراءة
والتدوين. فلا شيء بمائل المعاينة والمشاهدة، أومى.. مردداً السلام على القوم،
ما تزال بقايا حضورهم ساعية، ماثلة.. فسيفساء دقيقة، ملونة. أبواب مغلقة،
حنيت معلقة، أمضي بجوار الجدار الممتد، يستعرضني أو أستعرضه، أحتويه
ويأخذُ مني مقدراً. صفرة الأحجار العتيقة أعينها بقر، تبرز عندي بما خلفه
إبريز جسدها الدافئ، الذي بدأتُ أعتاد الاتكاءَ عليه، تتوالى الأبواب الموصدة

عبر البناء الذي يحدد المساحة ويضع شكلاً للتكوين، أبلغ الطرف الشمالي
حيث المنارة القصبة..

باب العفو

للوصول مراحل، قَطْعُهَا متدرجةً يوهل ويعهد، يساعد ولا يوهن، البناء
المضموم، الحاوي، لا يسفر عن مكنونه دفعة واحدة، لابد من مدارج، وجهل
يُنْذَل، لابد للعمارة من مدخل، وإلا كانت صماء، لا تؤدي إلى غاية، وما من
مدخل بدون ولوج مؤدّ، عبور الفرج مُوصِل للحياة، وكلّ دخول فيه نقصان
يفضي إلى زيادة، مامن عمارة جامدة أو إنسية ارتبطتُ بها إلا لقيتُ فيها
ذلك. إيقاعُ الجسد قائمٌ في المادة الوعرة، المصوغة، بوابةٌ ثم دهليزٌ فصحن
مفض إلى مستقر أو مستودع، المر الفرعوني القديم، الضيق المؤدي إلى السعة،
إلى اللاتناهي، حسر العبور من العادي إلى المقدس، الرحم المكنون حيث مدفن
البذرة ومنبتها، ما بين عمارة الجسد وعمارة المبد تنقلتُ مدفوعاً بطاعتي
ورغبتني في التجاوز أيضاً.

برج المثلثة في الجانب الشمالي، شقرة الجدران بشارة ظهورها مرة أخرى،
كنتُ شفيفاً، متدفقاً رغم إرهابي، مستنقراً بعض كوامن الزمن الأول، حتى
الآن لا أدري.. هل جرى ذلك بتأثير رؤيتي لها وتعلقي العابر، الخاطف، أم..
لبلوعي هذا الموضع الذي طالعتُ صوره وقرأتُ كل نصّ متاح حوله، كل
المعاينة تتحول إلى صور، إلى ما يصعب تثبيته، أو الإمعان فيه.

أتوقف في الصحن المكشوف، يغمرنني عبير أشجار البرتقال، ثمة شيء
يتنظرنني.. لا أدري كنهه١٩، لكن طوافي حول غموضه يوحى ويهيج، يثير

الكوامن ويث الوعود.

هنا، في موضع محدد قامت مِيضَاةٌ، أو شِكْ على رؤية تقاطر القوم وانحنائهم وكشف المرافقي والسواعد والأقدام، أصداءً حرير القَطَرَات، طقوس التطهر قبل القدوم.

تلك الأشجار، النخلات، ليتني ألم بأنسابها، بجذور سلالاتها حتى أقف على النشأة الأولى. أقف في الفراغ، متطلعاً، محاولاً تثبيت الموجودات في أعماق الذاكرة، لا أملك من أمرها شيئاً، لا أدري لماذا يبقى هذا، ولماذا يُمحى ذاك؟، غير أن ما يُفِلْتُ خلال الأعوام الأخيرة بلا حصر، ما تحملته كثيرٌ، عند حدٍّ معين يبدأ الخو.

أتطلع متمهلاً، إلى الروايا، الأركان، إلى الكتابات العربية المنقوشة فوق الحجارة، لا أراها في آتيتها، إنما في حضورها المستمر، منذ أن كانت معاني في أذهان الفعلة، الحذقة، قبل شروعهم في التخطيط والنقش، لم يكن إقدامهم مجرد عمل مجرد، إنما صلاة، ترتيلاً.

هذا شأني كلما واجهت نصاً عتيقاً، سواء كان حروفاً هيروغليفية أو قبطية، آشورية، بابلية، إغريقية، سومرية، مسمارية، سريانية، عبرية، لاتينية، صينية، أوردية، أو إشارات غامضة خرجت من أنامل سرت فيها الحياة يوماً، أرقب الخطوط والأبعاد وأحاول عبور محدوديتي.

أسدد البصر لأقرأ..

"أمر عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الناصرُ لدينِ اللَّهِ أَطَالَ اللَّهُ بقاءه بينان هذا الوجوه وإحكام إتقانه تعظيماً لشعائرِ اللَّهِ ومحافظةً على حُرْمِ بيوته التي أَدِنَ اللَّهُ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه.."

إلى أعلى كتابةً، ربما باللاتينية، بالإسبانية، لا أعرف، لكنني أفهم إضافات

المنتصرين لتأكيد حوزتهم وهيمنتهم. كيف أفلتت تلك الحروف العربية؟ كيف تجاوزت التعصبَ واندفاعَ الغباوة؟ ليس الخطوطَ فحسب. إنما هذا البناءُ كله؟

يجب أن أمضي إلى أقصى الجانب الشمالي حيث البابُ المفتوحُ للزائرين، لا أعرف اسمه، عنده يقف الحراس. بابُ النخيلِ مغلقٌ، موصدٌ، الملحُ طابوراً منتظماً أمامَ مكتبٍ صغيرٍ لبطاقاتِ الزيارة.

هنا.. يوشك التهويُّ على الاكتمال، يبدأ الإقدامُ تجاه صميم المكان، أصغي إلى حركة أبي فجرٍ، تدفقُ صنبور المياه. خروجه، إغلاقه البابُ يحذر خشية أن يوقظنا، ابتعاد خطواته في الحارة، تلاشيها، باتجاه مسجد مولانا وسيدنا الإمام الحسين، أكاد أصغي إليها هنا في قرطبة، بينما الضوء يند عليّ بلا انقطاع.

ضوء صريح، يحتوي حركتي منذ شروعي، درجاته مختلفة، لا يرصدها إلا المدققُ المحقق، في محطة القطار، داخل المركبة، وكان جسدها الكهرماني يضاد ما يغمره بضوء ناعم، وثير، مهدئ للمزعجات. أما الضوء القرطي الذي يلف المدينة ويكشف أبعادها فمغاير لكافة ماعهدت، غير أن موجاته في الصحن المكتشف ذات طبيعة متمهلة، تخويني، تبصّرني بدقائق الأمور، بمعارف لم أكن مُلمّاً بشيء منها قبل بلوغي المكان واللحظة.

إنه الضوء

يجب أن أتهياً به، أن أتطهر وأتدتر، هكذا بدأت أتوضأ بالنور، ليس ذلك ما أبصر به ولا أراه، إنه القادم إليّ، المنبعث مني، المبدد كل عتمة، البالغ كل فجٍّ..

باب النخيل

ثمة ما يوجِّحُ حنيني ويخضعني ويلزمني الامتثال، من ذلك النخيلُ وهديلُ
اليمامِ وصفيرُ القاطراتِ البخاريةِ وما يصلُّ العصرَ بالمغرب، وسائرُ الروائحِ التي
سكنت حواسي، وهواجمُ الخواطرِ الواقدةِ من منابعِ قصبةٍ مجهولةٍ، لكلِّ مفردةٍ
أسبابُها، يصعبُ تفسيرُها في هذا التدوين، أما إذا ما لآتني الظروفُ فرعاً أفرد
كتاباً للحنين.. لعل وعسى !

النخيل عندني له الصدارة، والمنزلة والسطوة والتطمين، أمره عندي قديم، لم
أتوقف عند الباب المغلق، لم أسأل عن سبب قصده، ما تعلقتُ به اسمه، أحيانا
يطغى على الشيء المحسوس، بل يحدد هويته وملاحجه، عندما أستعيد بعض من
عرفت أو حاولتُ وصلهن، أجد أن الاسم يضيفي خصوصية لا أقدر على تحديد
ملاحمها، ثريا متلاً كانت ستكتسب صفاتٍ أخرى لو أن اسمها مغاير. كذلك
سعاد ومديحة. سعاد؟ .. لا يمكن أن تكون إلا سعاد. إنها الحروف والدلالة
والمعنى كله. هذا بالنسبة لكل من عرفتهن أو اكتفيتُ منهن بالنظر، أحيانا
أتوقف عند من أجهلها ولا أعرفها، أطلق عليها اسماً من عندي، ربما تكتمل
المعرفة فأجد التطابق، أما إذا وقع الاختلاف فيظل الاسم الذي أسبغته طاعياً،
مهيمناً على ذاكرتي..

النخيل ..

أتمهل أمامه، أتطلع صوب الطابور، رجال أمن، سراويل داكنة، أسلحة
بادية، أبطى خطاي.. هكذا شأني، قبل كل كشف. ما يسبق اتحادي بمكان أو
لحظة أو.. أنثى، دائماً أتمهل السعي إلى بلوغ الغاية أمتع، أما نيلها فيعني
التلاشي!، لذلك أوتر التوقع إلا في المكاره، على أي حال المرء قلب.

اعتبرت اجتياز الصحن المكشوف بمثابة نقلة، بعد أن دفعتُ مقابل البطاقة، ألقىت نظرة جامعة، الصحن، الريح، الأشجار، الجموع، جنسيات شتى، يرفع أدلاء الأفواج لافتات صغيرة، لكنني مفرد، صليتي مغايرة. أُنتمي إلى النخيل الذي لم يعد، كأني مالك بيتٍ جاء يتفقدّه بعد إقامة غيره به، لو أنها بصحبي لأفضيت، لكم بدت منعمة، صريحة الطلع، شديدة الغواية، أمومية الخض، مرتوية، بهية الصدر. منها زهوُ اليمامة بعد الفراغ من الحب، الرفرقة. التيه على ما عداها، الطيران عالياً، فرحاً وزقزقة، أما ضوءُ بشرتها المُصنَّبُ فالغنى ماعداها. أحاول عبثاً استعادة ملمح من أي أنثى، وما أكثرهن ذلك اليوم في الصحن المكشوف، في المُغطى. لكنني لا أقدر، أجوس بعيني. عندي يقينٌ خفيٌّ أنها مطلّعةٌ، مُلمّةٌ، ترقبني من موضعٍ ما. أتهدأ لاجتياز المدخل، غير أنني أتوقفُ مُباغتاً، كأنها النقلة الأروى في مسيرتي المُضنيّة، إنّها المواجهة..

أَسِينَةُ الْحَجَرِ

ما بين المقيم والعاير

ما بين السجين المرغوم، والزائر

ما بين الأصل والظل، ما بين الثبت والفرع، ما بين لحظة فانية وأخرى ساعية.. جرى اللقاء.

رغم أنني قرأت العديد من الكتب، وشاهدت صوراً شتى إلا أن بصري فوجئ، وكان حلُّ جهدي استيعاب ما تحويه ذاكرة الفراغ. في الصحن البرتقالي المكشوف ينهمر ضوء ناصع..

في الداخل ضوء من ظلال متجاورة.

أعمدة ..

بالتحديد عمودان، يعلوهما قوس على هيئة حدوة فرس، أبيض، أحمر،
تبادل الحجارة المعلقة اللونين، ملمح إنساني فيهما، يتطلعان نحوي بخذر
وخشية وأسى. -إنهما مقدمة الكون المتواري، أرحمني مرأهما، واتننى لحظّة
نائية..

عندما داهموا بيتنا ذات فجر أكتوبري، سنة ست وستين. بعد التفتيش
اقتادني ثلاثة أشداء، يرتدون الملابس المدنية، ضابط وجنديان، عربة رمادية،
قديمة الطراز، سلكتُ الطريق المخاذي للنيل حتى طرة، ثم اتجهت شرقاً، عبرت
حاجزاً يحرسه جُند مدحج، ونفقاً ومضت بجذء معسكرات جيش وشرطة،
وأرض غير ممهدة، إلى أن توقفتنا أمام باب كبير يتخلله آخر صغير، مكتب
المأمور إلى اليمين، مكاتب الإدارة إلى اليسار، في المواجهة بوابة تتخللها قضبان
حديدية، غيرها رأيت البعض يرتدون ملابس المعتقل البيضاء المائلة إلى الصفرة،
يتطلعون بخذر وفضول إلى القادمين من بعيد، من عالم جدّت صلتهم به، لحظة
وصولي كنت عندهم موضوعاً للفضول، للتساؤل، حتى هذه اللحظة كنت
أمت بشكل ماء، بدرجة ما إلى العالم الخارجي، فما زلت على العتبة.

أقف متردداً، تتراوح النظرات مني إلى الأعمدة، أتلقى ذلك الفضول
الأبكم، الدال، أغمض عينيّ، أفتحهما، أفهم ما يرد إليّ وأرسل بعضاً من
إشاراتي، فما بيني وبين المكان وزمانه مغاير.

أخطو فوق أرض أجهل شخوص من عبروها قبلي، لكنني أرصد ما تبقى
لعل وعسى، غير أنني بمجرد احتياز المدخل أواجه صمت الأعمدة الضاحّ
بالحنين، أنتبه إلى بدء سفري عبر درجات الضوء وأطواره المتقلبة.. إنها ذاكرة
الضوء ومراحله منذ وجود الومضة الأولى.

مع تمام ولوجي بدأ استسلامي الهادئ لذلك النور الخافت، المؤثر، الفياض
بشجن الكون، خافت، خالص من الكدورات، يلغي ماعده، ينف وزني
ويشف ثقلي، ماحيرني.. تساؤلي عن مصادره، منابعه، طوال سعي لم أكف،
حتى أيقنت أنني مواجه بأمر لم أعده، وأني بعده غير ما كنت قبله !

الأعمدة نخيلة، أقطارها متقاربة، يمكن اعتبارها أنوثية الطلع وذكورية أيضاً،
توحي بهما معاً فكلها جامعة، اثنان.. اثنان.. أو .. واحد. واحد. الأصل دائماً
مفرد، لا يستمر طويلاً إلى أعلى، قصر محكم، مسيطر عليه كما يبدو للطلّة
الأولى، لكنه مستمر، لا ينتهي. لاحد له، تبدأ همزة الوصل الأولى والكبرى
فيما يلي القاعدة المربعة والتاج، تيجان مختلفة غير متشابهة، إنها نقطة التلاقي،
محطة الارتقاء والتفرق أيضاً، منها ينبثق القوس الأول الذي يصل بالواحد التالي
والثاني أو الثالث أو الرابع أو.. السابع في الوقت عينه، كل ركيزة أول وآخر،
يكتمل القوس في الفراغ قبل نزوله إلى نقطة التماس الموازية، من الاجتماع تبدأ
قاعدة الصعود وعند لحظة معينة، محددة يبدأ تفرع القوسين الأكبر حجماً،
الأتقل وزناً، يحيل الانحناء إلى يمين، إلى يسار، تستمر المتواليات إلى مالا نهاية
تلاحق الأبصار أينما ولت، أينما وقعت لا تمكث، حركة غير مرئية. ضحيها
خفي، غير مسموع، أدنو متهدداً، مفارقاً كدوراتي الأسبانية.

أي غرابة ؟

لم أعرف شيئاً كهذا.

كون مقلوب، يعلونا، صحيح أن الأرض تشدنا، تمسك بنا أن نقع في
الفراغ، أن نتحول إلى كويكبات حائمة، من هذه الأرض المعتقة كان قدومنا،
وإلى ذرات النجوم نعود، هذا مقطوع به، لكن ثمة مركز وتشابه، هنا لا بد من
قعدة ولو يسيرة.

جاذب

أويت إلى أحد الأعمدة، طمأنني الظلال، وانقطعت عن كل كدر وضجر،
أغمضت عيني. أدرك أنني ساع إلى مركز ما، لا أعني المخراب. فهذا موضع،
مبين، وأعرف موقعه مما طالعته، وأدركته. لكنني أعني آخر لا يمكن تحديده أو
الإلمام به، غيبي، في مكان وزمن ما، منفصل عنا، أو متصل، لا يمكن التعيين،
لكل مركزه. ومما قرأت عنه وحاولت الإحاطة بالمتاح من معلومات عنه، ما
يُطلق عليه في علم الفلك الجاذب الأعظم. هذا الكون الشاسع، الذي تقدر
أبعاده بمليارات السنوات الضوئية، له عمر، ومن له عمر يعني ذلك أن له بداية.
ومن يبدأ لابد أن يصل إلى نهاية، فلكل أول آخر، وإلا لما كان ثمة أول، هذا
مقطوع به، ولأن كل شيء فيه يدور. فلا بد من لحظة كف، لحظة تكتمل فيها
المنية، تهمد الفورات، والهدير، والتهام الطاقات، ومن الهمود يكون التجدد،
وما ينطبق على أنأى الأفلاك، أقصى النجوم والمجرات، نلقاه داخلنا، في الخلية
التي لا يمكن مشاهدتها إلا بالمجهر.

هناك.. ثمة مركز، يطلقون عليه "الجاذب الأعظم". لم يره أحد، ولم تقتنص
أطيافه آلات متاحة، لكنه الاستنتاج بعد إجراء حسابات دقيقة، أمكن
الاستدلال عليه.

الجاذب الأعظم ..

بورة الكون ؟

لب الصبرورة ؟

يمسك الكل والجزء حتى لا ينفطر الأمر. لكل شيء نواة، منها يبدأ
الحضور وإليها ينتهي الغياب، مسالك لا تعرف أي تعريج. إلى جوار العمود

قعدتُ بمفردي رغم مرور كثيرين حولي، كنت مشغولاً بالنظر داخلي، حولي، إلى أركان المسجد، بالبحث عن مركز أدرك وجوده ولا أقف عليه.

أينما وليت وجهي لا أرى إلا تلك البنية الشهباءية، وفيضها الأنوثيَّ الغزير. أتبع الضوء الهادئ القادم من منابعٍ خفية، علوية، يعبر ما بين الأقواس والدعامات والحنيتات وتجاويف الزخارف، أتلملم، أتواءم مع ذاتي مقدار لحظة، لكنها كافية.

الحضور كله موجز في الآن وهنا، وقتٍ ومكان، أستوثقُ أن بورة وقتي الآن تلك الدافقة العابرة. تلك العلامة، دنتُ ونأتُ.

أعرف أن الوعي بسرّ النغم يعني تلاشيهِ، وأن الإمساك بالإيقاع إيذانٌ بفنائه. هذا ما يدفعني إلى الرحيل عبر كافة الاتجاهات، المرئية واللامدركة بالحواس. الآن.. ليس لي إلا السعي، لا وقت للتطلع هنا وهناك، الإمعان فحسب، الكفّ بإبادة. التوقف فناء. أليس هذا عين ما توصلتُ إليه في كتابي "متون الأهرام"، ذلك أن الثقل هناك يبدأ من القاعدة، من الأرض يبدأ الحضور ويبدأ التدرج إلى اللانهاية، مع الارتفاع يخفّ شيئاً فشيئاً حتى يتحقق التلاشي عند الذروة. ينتهي التكوين الملموس، المرئي، إلى آخر لا يمكن إدراكه.

هنا في قرطبة أواجهُ أمراً محيراً. يتحدى القواعد السارية. إذ تزداد الكثافة مع الصعود، الثقل إلى أعلى، لا يمكن تعيينُ مرتكزهِ، خفيّ مع أنه مشرف، مطل، هنا يطل عمل الحواس التي نعرفها ويبدأ تأثير أخرى لا نعرفها، لم يدركها أي من حُدّاق العلم. الأعمدة، الأقواس في حركة دائمة وإن بدت لغير أهل الإدراك ثابتة.

اتخذتُ عين الوضع الذي كنتُ عليه عندما صبحني أبي طفلاً في مسقط رأسي، جهينة، خاض بي لجة المزروعات من قصب وذرة وقمح وبرسيم وسمسم ومالا أعرف له اسماً. من عادته أن يطوف بالنخيل الذي ورثه عن

والده، حوالي مائة وأربعين نخلة، أقول حوالي لأنني لا أذكر الرقم تحديداً، معظمها مثمر، لم تكن بموضع واحد، إنما موزعة على أنحاء جهينة وأقسامها الأربعة. يشير أبي إلى كل منها :

"تلك نخلتك.."

ثم يخطو أو يقطع مسافة ليواجه أخرى :

"وهذه.."

يقول : "احفظ موضعها ورائها .."

ترى .. هل كان يقدمني إلى النخيل أم يعرف الأشجار بي؟

اقتفيت نظراته، استعدتها مراراً، ورثتها عنه، كذا طلته، وقفته في مواجهة الجذوع والسعف والسباطات، غير أنني لم أرافقه في زيارته الأخيرة، انقطعت ولم ينقطع هو، مضى إلى نخلاته وحيداً. هذا ما أكدته لي القوم بعد تمامه المفاجئ، رحمه الله، عندما عدتُ إلى البلد حاولتُ السعي إلى النخيل، لكنني ضللت طريقي، ولم يدلني أحد.

نخيل متشابه كتلك الأعمدة، صارت وقفتي قلقة. غير واثقة، حائرة، والأقارب لا يساعدون، ولا يقدمون إشارة، ربما بدافع طمع أو عن جهل.

أستعيد وقفتي المفقدة بعد أكثر من أربعين عاماً، وأين..؟ في قرطبة، في الأندلس، في القسم الأول، الأقدم، كأن عبد الرحمن الداخل وضع أساسه منذ ثلاثة عشر قرناً لاستعيد زمامي، وأتمكن. إلى هنا تفد أشجار النخيل كافة، تمر أمامي، خلقي، تنزع صفاتها ويتبقى جوهرها.

تومئ الأعمدة إلى كل مفتقد، عصبي على الاستعادة، تتوالى فيتابع صارم، تدور حول بعضها، تبادل المواقع، إذا رغب الناظر رؤيتها متجاوزة شاهدها

كذلك، وإذا شاء معاينتها في خطوط مائلة كان له ذلك، وإذا أراد وضع حد لاستمراريتها حصل.

يستحضر البناء وما يتبعه من فراغات كافة الأصول والعناصر، من أرض وسماء، وتدبير وصدفة. واستقامة وميل، أشجار وأنهار، غيوم وظلال، كذا أصوات الكون.

أوشكُ على اليقين أن كل من عرفتهم يتطلعون صوبي، أبي يرقبني، بمامة البشرية تخلق قربي. نتطلع إليّ، أستعيد تضاريسها، عندئذ أصفو، أشف وأرق، نفيض مني بهجة، أرغب في الانطلاق، في الرفرفة، في البوح، في تقبيل كل حي وجماد!

كل هذه الأعمدة أمامي. تؤكد بتواليها لا محدوديتها، يسري خلالها الضوء، خافتاً هنا، ساطعاً هناك، نور على نور، نور من نور، نور يهدي ونور يعشي. نور من نور. عصي على الإدراك، مصادره نائية، مجهولة، أوقنُ بقربه وبعده. أستعيد القدرة على التوجه، على تجاهل الرصيد المتبقي.

أتمهل عند المفارق، والموضع كله نقاط تلاق وتباثد. لحظة الاجتماع يبرز الشقاق. كل جهة تؤدي إلى الأخرى، كل جانب هدف ومنطلق في الوقت عينه.

لا أعبأ بالوقت، زمن آخر، خاص بدأ مع ولوجي. هنا نور البداية وغسق النهاية، السقف المتواري في الأعالي، يلي سموق الأعمدة ومنحنيات الأقواس. عتمة خفيفة تسري، مؤقتة، زائلة، لا تستعصي يمكن المشاهدة غيرها.

بغثة.. ينفجر ضوء ثاقب، نافذ، يكشف أدق الذرات العالقة، أما أصداؤه فنسلك شعباً يؤدي إلى من أجهله. أتوقف عند عمود بعينه، نباتي التاج، تنبثق منه. وريقات مومنة، تعلوه قاعدة، ثم ينطلق الحجر المستقيم صاعدًا يتفرع منه

قوسان قرب بدايته، آخران أكبر حجماً قرب نهايته، كل منهما ماض إلى وجهته، لكن ما رفرفني وحيرني كتابة محفورة، قديمة، أصلها كوفي وفرعها أندلسي مجوهر

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

لو أنني أشهدتها في مكان آخر لما توقفت. لكن هنا.. مغاير. تلك الحروف، هذه الكلمات ..

كيف اجتازت تلك الحقب كلها ؟

كيف تفادت الأحداق المدققة. الفاحصة، الباحثة عن الخو؟

أم أنها حفرت في وقت متأخر خفية ؟

كيف نجا المسجد ذاته ؟

كيف صمدت تلك الأعمدة والأقواس والظلال، كيف بقي الضوء رغم

كافة محاولات التمزيق والتغيير وتقطيع الأوصال؟

لابد أن بعض المتنفدين في القوم قدروا وتدخلوا، ألا يعني ذلك أن الإبداع الإنساني عند بلوغه الأوج لا يقهر العدم فقط، إنما يصدّ التعصب ويضع حداً لضيق النظرة.

أنهياً للتقدم عبر الفراغات المتصلة، المنقطعة. مهما قويت الرغبة في البقاء، لابد من الخطو، التأهب للمفارقة. مغادرة البداية إلى الإضافات، هنا الأصل، ماعدا ذلك ترديدٌ وترجيع، هنا انبثاق الخيال. بدء التكوين ومركز القضية. مايتبع مجرد تقليد وتكرار. أنست من الفراغ أمناً وطمأنينة.

أتلمس الحجر بالخطارة، بالفكرة، أكاد أدرك أصدقاء العابرين، المولين، مامن
تعلق بالحواس إلا ويخلف أثراً، غير أن إدراكه غير متاح للكل.
لا بد من سعي، مهما لانت الإقامة، وتعددت فيوضاتها فلا بد من الخطو،
مهما بدا الفراغ وثيراً فالخروج حتمي والمفارقة ضرورة..

توالج الضوء

مع أنها عين الأعمدة من حيث الظاهر، إلا أن الزمن مغاير والموضع مختلف
والتطلع متقلب، هنا اكتشف التداخل، الضوء في الضوء، ونفاذ الفكرة عبر
الفكرة. ولحاق اللحظة باللحظة.

تفد الأشعة منبعثة من الحجر، صادرة عن مسام لا ترى، صخر مجوهر، لون
يلد لوناً، لكل قوامه وإمكانياته، الأصفر والأزرق والأحمر أصول لا تستحدث،
أما الأبيض والأسود فلا سبيل وما من شعب مؤدّ إليهما.

إذا نَكَحَ الأزرقُ الأصفرَ يتولّدُ الأخضرُ.

امتزاجُ الأسودِ والأحمرِ منجبٌ للياقوتي

ذوبان الأحمر والأزرق يتبعه البنفسجي.

تختفي الألوان الأصلية. يمكن الاستدلال على حضورها في توالي الأطياف
الجديدة، لكنها كلها لا معنى لها إلاّ بالأبيض، بالنور، هذا ما أدركته في القسم
الثاني والذي يعرفه من اطلع على المراحل التي مرّ بها البناء. لكن.. ما لم أقف
عليه. ما لم أقرأ عنه، ما لم يخبرني به أحدٌ ذلك الكون غير المنظور، يبدأ من هنا
وينتهي هنا. الضوء هنا كون مُتكوّن، مُكوّن، يكفي بعناصره، إذا أُعْتِمَ الخارجُ

بَقِيَ عَلَى حاله. إِذَا أَظْلَمَتِ المَصادرُ لَمْ يَكْفِ. إِذَا قامَ حَجَرٌ انبَعَثَ مِنْهُ، إِذَا
أُوصِدَ بابٌ صَدَرَ عَنْهُ، إِذَا عَشِقْتُهُ عَيْنٌ بَدَأَ لها كَما تُريدُ، كَما يَهِوى صاحِبُها،
لا أُدرِي.. هَلْ تَواطأَ المَهندسُ الَّذي شَقَّ قَلبَ البَناءِ، وأقامَ في المَركِزِ تَلكَ
الكَنيسةَ الضَخمَةَ، الهائِلَةَ، المَتنافِرةَ.

"يا.. لَقَدْ دَمَرْتُمُ شَئِئاً لا مِثيلَ لَه في العالَمِ، وَبَنَيْتُمُ ما يَوجدُ مِثلُه"

هَذا مَلِكٌ إِسباني تَفضِلُني عَصورٌ عَنْهُ. لَكنهُ فَاهِمٌ، مَنتَهَمٌ، مِثلُه مَن أوقَفَ
الكَارِثَةَ، أَمّا المَهندسُ الَّذي لا أَعرفُ عَنْهُ إِلا ما يَتَشبهُ اسمُهُ، "هُونّا رَويِز" فلا يَدُ
أَنَّهُ أدركَ.

رَغمُ مِئَةِ البَنيانِ وَزَخرَفتِهِ، إِلا أَنَّهُ خَفيٌّ، يَظَهرُ فَجأةً بِدونِ تَمهيدٍ، يَكتَشِفُها
الساعِي فَجأةً. مَن داخَلَها تَبدو أَعَمَدَةُ المَسجِدِ مَتحَلِقَةٌ، مَطلَعَةٌ، وأَقواسُهُ الَّتِي
انفَصَلتْ عَن مِثِلاتِها، بَعضُها وَحيدٌ، مَنيبٌ، لَكنهُ شَاحِصٌ، مَمتَصِلٌ وَإِن لَمْ
يَمتَصِلْ. بِدونِ تَدرِجٍ، بلا تَمهيدٍ، تَبدو فَجأةً لِلزائِرِ الساعِي، لا يَرى مَلاحِها
المَغايرةَ إِلا عَندَ مَحاذِياتِها ثَمَّ الِوَلُوجِ داخِلُها.

ما ذا يَعيَنِي اخْتِفاءُ البَناءِ المَغايرِ؟

بِمَا ذا تَفسِرُ الظَهورَ المَفاخِي لِلكَنيسةِ رَغمَ ضَخامَتِها؟

هَلْ قَصَدَ المَهندسُ، المَخطِطُ ذَلكَ؟

النورُ في فِراغاتِها أَصرَحُ، أَسطَعُ، لَكنهُ يَنهَلُ مِنَ المَنايِعِ ذاتِها، عَندَ التَطلُّعِ
مَن داخَلَها إِلى الأَعَمَدَةِ البادِيَةِ، تَبدو دانيَةً، قَريبَةً، هَكذا جَمعٌ وَفَرَقٌ، وَصَلٌ
وَقَطعٌ، اسْتِعانٌ بِالضوءِ عَلى تَحقيقِ الرَوحَةِ والفِصلِ.

لِما ذا لا يَكونُ حَضورُ البَناءِ المَغايرِ إِشارةً عَلى الجَمعِ بَدلاً مِنَ التَفرِقِ؟

أطوف، أتقدم، أترجع، أتمنم، أنتظر مرور الجماعات الزائرة، أتجنبها،
كنت راغباً في تحقيق الانفراد، الإصغاء، اختراق العصور البائدة بخواصي، لا
أسعى إلى ملموس، لكن قصدي معانٍ لم يتوقف عندها أحد، لم يشملها تدوين.

لكم توقفت أمام كوات ومقرنصات وزخارف وزجاج معشق بالجيس
وقناديل معلقة وخطوط متعاقبة وظلال من ذكريات مولية، لكن شتان ما بين
رسوي هنا وهناك في سائر مواضع العبادة التي عرفتُها. وهذا المسجد الظاهر.
الخفي. المفرد.

كنت مضطرباً، وعندى شوقٌ وشرٌّ، أن أرى ما رآه كل من سبقني، أن
أطلع على شيء لم يستدل عليه أحد قبلي، أن أقف على مجمل التفسيرات
المحتملة في الأزمنة القادمة، العصور التي لن أبلغها.

أتوقف أمام لوحة رخامية.

ألثقتُ ..

لا أحد .

لماذا أيقنتُ بوقوع ظلها وحومان فنتتها، وحضورها القريب ؟

يبدأ رحيلي مع القلم الكوفي، كل ما تقع عليه عيني يجاوبني، يسلم ويبلغني
البوح، لو لمستُ الحجر لواجهتُ رد فعل ما، لا أقدر على تحديده.

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد أن لا إله إلا الله

ما شاء الله كان

ولا حول ولا قوة إلا بالله

أَتوقفُ ..

أُنتهي مكرراً القراءة، مرة بالنطق، ومرة بالصمت، أُنْثَبه إلى رجل متوسط
القامة، يتطلع نحوي، في قسماته شَبَهُ منها، يحسم امرأة، يدنو مني.

يستفسر بالإنجليزية، أو هكذا فهمتُ ..

ماذا تقول ؟

يشير إلى اللوحة، أبدأ محاولاً الترجمة، لا أتعثر، كأني أحفظ السطور كلها
بلغات مغايرة.

ما شاء الله كان

عندما فرغت لم يكن في جواربي احتفَى، لم أهتم. إذ عاودني اليقين أنني
أتحرك في دائرة بصرها. أقرب إليّ مما أتوقع، أن شُقْرة جسدِها ليست مستمدة
إلاّ من تلك الموجيات الهادئة السارية، ملاحُها الهادئة، الراسخة، الواثقة، مبشُوةٌ
عبر الوجوه كلها.

رؤية عابرة أو هكذا خُيِّل إليّ صارت مرجعاً وسنداً..

أخطو. لا أرجع إلى نقطة أو لحظة توحدت بها، توقيتي صار مني، منقطعاً
عما حولي، أتوقف، أطل، أنظر، وعند حد معين أحلي مكاني لأنتقل إلى غيره
بدافع غامض يعسر عليّ وصفه أو تفسيره. لا أدري هل اقتربتُ من المخراب أو
اقترب مني؟، تبدو الأقواس وتتجاوز الفصوص. يبلغ الحجر الصقيل درجة من
الإفصاح عن المكنون، يومي. يشير، يدل، ألتفتُ مرة..

شخصاً الأعمدة. من منتصف الخط المواجه يمكن رؤيتها كلها مجتمعة،
منفرقة، متطلعة، ناظرة، حتى المناطق العلوية أو المعتمة فئمة إيماءات واردة منها
وضرورة. إظلامها الخفيف جاء بترتيب مقصود وغير مقصود. فلو أن الضوء

سَرَى من المركز إلى كل الأطراف، لو أنه قصد النواحي كلها وسائر الزوايا والأركان لما أمكن رؤيته أو الإبصار به. أو معرفة الظل من نقيضه، فالنور لا يُعرف بالنور، إنما بالعممة. هكذا. لا يمكن إدراك القوة إلا من خلال الوهن، والسطوع عبر الخفوت، كلاهما لازم، وبدون الامتثال لا يمكن إدراك أو فهم تلك الزرقة، والحمرة، والشقرة الصهباء. وسكينة الحجر المتراص.

أدنو من الانفراجة المحكمة. حيث يبدو لناقص الدربة أنه بالغ حده، أنه سينتهي بعد خطوتين أو ثلاث، لكن .. من أدرك الإشارة يعي خلاف ذلك.

ثمة مصدر، ثمة مركز..

ربما أمامي، فوق، تحتي، حولي، عندي، بدايةً وغايةً. إنه حدّ الضامّ والمضموم. الوقت عصرٌ ديمومي، لم أطلعْ إلى ساعة. إنما دليلي حسي وكفايتي. تجاوز الحراب محال، في الابتعاد أكثر هلاك، التطلع مع التزام الحشمة هو الغاية. لذا وجب السجود..

عصر

إنه الوقت الموازي لبدا حنيني عند استعادة ماجري، المترجم في تلك الدرجة من اللون المعتق، تمسك بناصية الأحمر والأخضر الغامق والأصفر المحال !

تصطفّ كافة الأعمدة خلقي، كل عمود وقعت عليه عيني، ليس هنا فقط. إنما في سائر محطات عمري، تشخص الكوات بعيدة المنال، بدءاً من مسجد سيدي مرزوق، وضريح سيدي ومولاي الحسين، القاهري، وضريحه الكربلائي، ومشهده الدمشقي، إلى هذا التكوين القرطبي الضامّ.

تلك الذرات المنتظمة، الدائرة، الواصلة ما بين المنبع والمصب، تخفّ الرحل، بل تخفي تماماً، تنفضّ الرحمة، يخلو الفراغ من الفضول، والضجيج والشرخ، يتللم محتوياً ضوءه، وأنفاس القدامى العابرين، أنفرد بالفائت والقادم، وما

بينهما أشفّ وأذوي، تقرأني الآيات المنقوشة بالخط الكوفي، من الحجر يبدأ
السعي صوبي، يتألق الضوء مسترسلاً.

إنه لونها.

أمعن في السجود صوب لب القصد، وجوهر الوقت، مستوعباً المكان كله
عندي، بأقسامه ومدارجه ومراحله، وكل تلقّ ممكن واستيعابٍ محتمل، أضمه
ويضمني، غير أن التمام يعني دنوّ الرحيل. ألم يقل السابقون إن الرحلة إذا
اكتملت ذهب؟

يتماسُ مرفقي بمقدمه ركبي، على مهل أزداد اقتراباً من هيئة الطائر، تتزايد
عندي الرفرفة، أعي خفتي وبدء إقلاعي، أغمض عينيّ لليسر والنشوة الهادئة.
وكلاهما لم أعهدهما من قبل، أسري عبر الضوء، يصبح الموضع كله في
متناولي، أنفذ من سائر الكوات.

فراغ يفيض بتلك الشقرة الضوئية، بریقات كهربانية تبثها شمس أصيلية
محدقة، وصمت أبدي سَمَحَ بإصغائي إلى تخليقها صوبي، واقترب دفئها من
محاذاتي، ثقيأت للبت والتلقي.

طليطلية

لا أطمئن إلا قرب الأرض، مكثي في الطوابق العليا يثير اضطرابي ويقلقل
نومي، إذا اضطرتُّ إلى ركوب البحر أتعجل نزولي إلى البر. أثناء سفري حوّاً
يتضاعف قلقي عند قطع المسافات فوق البحار. حتى إذا لاحت الأرض من
علو شاهق يحل بي أنسٌ غامض، مع أن العلوّ الشاهق لا يتبدل ولا يتغير.

حتى سنواتٍ قريبة لم يكن حالي، لكنني وعيتُ بالأرض منذ أمد ليس بالقليل.

ربما بعد فوتي الأربعين. ربما بعد استقرار أبي وأمي داخلها واتحادهما.
مكوناتها، وبدء تأهبي لرقدي إذا ما احتواني عين الموضع الذي أعدته لذلك،
حتى إنني أجتهد لأرى بعين البصيرة رقتي الليلة الأولى، واستسلام ملاحني،
بعد انتهاء الصراع، وكمال صورتي الإنسانية قبل تبددها وذهابها الكلي، لو
الأمر بيدي لتحسستُ كل موضع وطئته، وملست عليه وسألته عن غيره
قبلي؟

غير أنني لم أتوقع قربي واندماجي بتلك الدرجة التي جرت لي في طليطلة،
نزلتها سبع ليال، وفي الأخيرة خرجت من فندق الجريكو حيث يقيم بعض
صحبي، قاصداً فندقني الواقع قرب بوابة الشمس العتيقة، عند بداية الطريق
الصاعد إلى مسجد النور، الصغير، المضموم، الملموم، الشحي.

أيامٌ قصارٌ لكنها كثيفة. لم أكفَ عن الطواف بدروبها، بحواريها الطالعة،
النازلة، المرصوفة بأحجار عتيقة، بيوتها متقاربة الواجهات، دمشقية المداخل
والنوافذ، ثمة بريد ساري في الفراغ لا يفضُّه إلا من طاف وعرف ولو بعضاً من
كل. به إيماءات قاهرة، وتصريحات حلبية، وأنفاس مراكشية، وحنين تعزي
أوقيرواني، لستُ غافلاً عن هذا، عن العيون التي تطلعت، والأجسام التي
تواجلت، وشبهات المتعة التي ترددت، وأصوات الصغار التي أفلتت عبر الصمت
المسدل، كذا الأيادي التي صافحت أو تماسكت، والترى الذي طوى، هذا
قصدي.

تغير التضاريس، تقوم المدن، تندثر، لكن اليابسة باقية، أرضية المسرح،
حتى يحين أوان التذري في الفضاء السحيق، هذا همٌ قديم، أصيل عندي، في
تلك الليلة، وما بين الفندقين أصغيتُ مطولاً إلى ما خبا وابتعد، وتلفتُ بين ما

كان وما يكون، حاولت اقتفاء المندثر. ولم أعن كثيراً بتوقع الآتي، ذلك أن
مراحلتي انقضت معظمها، وما تبقى أقل - هذا مقطوع به - والخلاف حول
المقادير لا غير. كافة ما تحقق بالوجود يترك أثراً، حتى النظرات والأصوات. هذا
يقيني أعلنه ليثبت من يتوصل إلى القدرة يوماً ما بعدي، طليطلة مضمومة،
مؤطرة. مياه نهر التاجه من ثلاث جهات، أسوارها بادية، متموجة، وقصدها
معلن.

أهبط طريقاً منحدرًا، لا يدرك إلا مع بذل الجهد، أتشم هواء الليل
الإبريلي، الأندلسي، القادم عبر المروج والوديان المزروعة بأشجار الزيتون، أين
مصدر النسيم؟ من أين تنبع الرياح؟

ربما عند نقطة ما في أعماق الجحرات والسدم. ربما تتصلب النسمة العذبة
الملاحظة، المخففة، بمحمل حركة الكون. تطلعت إلى أعلى وعندي توقُّ إلى ما
أجهل وحنينٌ إلى ما لم أعشهُ، ورغبةٌ في لقاء أحبة غابت ملاحظهم عني.
واندثرت من حافظتي. سرى عندي رجوعٌ بعيد.

أنغامٌ ترددت عبر الفضاءات يوماً..

حواراتٌ خافتةٌ عند دنوّ قافلة

خروجٌ فنيةٌ إلى سفر طويل

إطراقةُ امرأةٍ تفتقد الإلف

هذا بيان

ليلة سبت.. عند مداخل المقاهي والمطاعم يقف الشبان والشابات، يضح
الفراغ بالحوية، تتقاطع الوعود الغامضة، لكنها مؤدية بلا شك، عند النواصي
يطالعني عناق، وضيمٌ، ولثم، وصبايات دافقة، وخصور متأهبة، وأكرانٌ ناعظة،

يتعشني مرأى التواصل رغم أنه باعث على شجني، خاصة في رحيلي، في انفرادي، ويأسي من ونيس.

طليلة شبة، تنحو على كل ساع فيها، لست استثناء، دفقٌ بدأ يسري عبر أوردتي وحنايا روحي، وقلباً كان مثل ذلك يدوم ويوجج توقدي، غير أنه الآن يثير حذري، إذ أبدأ إصغائي إلى هروع دقات قلبي، إلى متى يمكن التحمل؟ أستعيد ما قرأته عن غدة لا تعمل في الجسد الإنساني إلا قبل تمام الرحيل يوم وليلة، تؤدي إلى ما يعرفه القومُ بصحوة الموت، بل إن أكثر من صاحب محيطٍ بعلم الطب أخبروني عن قذف المني لحظة وقوع السكنة، وهذا عجيب !

أسترجع أموراً عديدة مشابهة خاصة عند اغترابي مع أن سفري لا يطول، لكنني أخاف موت الفجأة وأنا بعيد، ما يثير رعي أن أقضي في ظرف لا يمكن معه عودة ما تبقى مني، لا توسد الأرض التي يتكون ترابها من أجساد قومي، وإذا كان المصير إلى الوطاء بالأقدام، فليَسع فوق ذراتي إذن أهلي، يمنحني ذلك اطمئناناً في حياتي الدنيا.

يتواصل الدفقُ عندي، أتوقف، أطلق صوتاً مضموماً في مواجهة الفراغ، ألوح بيدي متسائلاً ومستفسراً ومعرباً عن حيرتي وتوقي. يُلدّر هذا مني فجأة أثناء انفرادي أو تواحدي بين جمع مما يثير دهشة من لا يعرف.

أتوئب، هذا لم يتفق لي إلا بصحبة محبوبة. لكم هي نائية عني الآن، هي في بلد وأنا في بلد، لها وضع وعندي وضع، واللقاء وعز، وهذا تفصيل يطول أمره، لا فائدة تُرجى من ذكرها فلا أقصر.

أتجاوز البوابة الأندلسية. السور القديم، البرج المربع، مداخل البيوت ذات الجدران المغطاة ببلاطات مشرقية الزخرف، لست متهيأ، غائب عني حذري في المدن النائية، خاصة البلاد التي لا أتقن لغات أهلها. لا أعرف إلا كلمات

محدودة من الإسبانية، أما الإنجليزية، فنادر من يتحدثها، بعض العناوين الأصل، ظهر اليوم تحدثت إلى بنية رقيقة اسمها "مدينة" واهتمت بي ق بشرية اسمها "زهراء"، شرفات بارزة، ونوافذ وافدة من مدن صغتها و أصغر في دروب لم أبلغها من قبل.

يتعاطف توثي، هذا حال جديد عليّ. لافائدة من المقارنة، انتفى المر ابتسمت للواحات. وناغيت الأرضة، وعتبت على المداحل الصادة، لا أعبأ بالدروب المودية إلى الفندق حيث مضجعي، ليلة أمس بدأ الرج ودوداً، متعاطفاً عندما عدت في الثانية بعد منتصف الليل، قال :

"متأخر جداً .."

أومأت مبتسماً، معتذراً. شاكرًا. طوال إقامتي لم أسمع منه إلا تلك لكنني أتمت ملاحظه الطيبة، وسوف أستعيده. ولجئت بوابة الحديقة التي أعرفها. أتقدم على أصداء الضوء، مقتفياً رائحة الحشائش وتنهيدات الز وطراوة الندى. تنأى الأصوات، وتخفت أصداء النجوم. ارتعاشاتي تدف نرق مبهين، إلى توثب، إلى رغبة في الصياح، حتى أسمع كل حي بالبحر.

أستعيد لحظة أو تعيدني، عندما فارقت مكان إقامتي ليلة وصولي الأ مدينة كبرى لا أعرف فيها شيئاً، لا تبع وصفاً أدلت به المحبوبة حتى يت اللقاء، ينتفض قلبي، يطوحني الحنين، يميل جذع روحي، أعجب ما يتبة أعز ما نعيه وهينات هشة لاتصمد حتى للتذكر، لكنها تقضقض وتزلز الروح بما يتجاوز زمن وقوعها، ترى.. كيف أستعيد هذا الدفق إذا ما استعادته بعد عشر أو عشرين؟

أي الملامح ستبقى ؟

أي مشاهد ستوارى ؟

تلك الشجيرة؟ هذا السور القصير؟ صوت قطرات الماء المفارقة للصنبور؟
تلك الرائحة المنبعثة للتو؟ عبير أنثوي عاتٍ، بكرٌ. لم يمرَّ على أحد، أميل
لأشمتها، أبداً انحنائي، أبسط راحتي راکعاً، أستنشق متجرعاً، ثم أعتدل لأتذوق
متفحصاً.

خليط من حناء وليمون وخلاصة ياسمين، ومسامٌ أنثى لم يحسسها ذكر،
أقرب إلى الريحان، مزرة، محرصة، تتخلل الرائحة الغضة سائر حواسي، أنشمها
بسمعي، وبصري، ومسامٍ جلدي، أميل مرة أخرى فتعاودني المهددة المورقة،
اللطيفة. تقسو عليّ رغبي. أتمدّد بطولي كله، أدرك فجأة الحضور الأنثوي
الداني مني، لم تعد الأرض صلبة، إنما مرققة، لينة، تطاوعني، أدرك أن طليطلة بما
حوت وما جرى فيها، بعلايتها وسرها، بفجورها وتقواها، تمنجني ما لم يعرفه
بشر. هذا مكان مؤنث يعول عليه، لين، يميل معي لأأخذ الوضع الذي يمكنني،
ويجعل المدينة كافة في إطار، في متناولي، أسدٌ سائر فتحاتها، تلك رغبة وافدة
لم أعرف لها مثيلاً، أستعيد حلالة المتعة الأولى، لحظة اكتشاف بلوغي وهذه
الطلاوة المصاحبة لاكتمال النشوة البكرية. لكن ما أعرفه في هذا الليل
الطليطلي مغاير، متجاوز لكل مألوف.

تمتد ذراعي لتضم ما وراء الظاهر، إلى مالا أدركه بالبصر، أتجرد من كافة
ما يغطي، ما يحجبني عنها. أدرك احتوائي لها، أضمها إليّ، بأشجارها،
أطيّارها، فصولها، أصباحها، أصائلها، أصواتها الخاصة، نواصيتها، منائرها،
أضوائها الهادئة، ونوافذها المشرفة، وأحجارها المرصوفة، وزهورها النابتة.

هذا نكاحٌ لم أسمع بمثله، أواصل إيلاجي إلى سائر جهاتها، أضمها إليّ،
أدنو من تلك اللحظة الراجفة حيث تندمج مكوناتنا، ويصعب عليّ إدراك
أجزائي من أحزائها، أعاطيها وتعاطيني. مني إليها ومنها إليّ، عبرها أسري إلى
الأشجار النابتة منها بكافة أنواعها، إلى موجبات الماء المتدفقة في جداولها،

الزهور الدقيقة قصيرة المدى. إلى كل أرض سعت فوقها. العمار. الخراب، ما
طليلة والقيروان وفاس وقابس ومراكش وشطب وسمرقند وجهينة وأخميم
وبخارى وعشق آباد وبودا وصنعاء والبصرة وقونية وقسطنطينية ورشيد ودمياط
وجبل المطير إلا إشارات ومسميات، أما استكانتي فعند إطلالتي الحية. التواقة.
الأسبانية، عبر غصن ربحان منبثق منها، متشبث بها، ذاك حسبي.

خجلة الشدا

لكل أنثى طيها، لا يتشابه شدا إحداهن مع أخرى، وعبر أيامي علق بي
من النوح الجميل ما أنوء به، وما يقلت مني إذا اجتهدت في محاولة استدعائه.
أصعب ما يستجيب للذكرى الأصوات والروائح. كل منهن كَوْنٌ قائم،
خصوصيته ماثلة، متوقعة، وكما تنفرد باستجاباتها في مراحل العشق المختلفة،
فإن ما ينبعث منهن متنوع، ما علينا إلا التلقي والامتياز.

اعتق ما أحفظ به، عبر "علية" - رحمها الله - ليس هذا التدوين بمناسب
للحديث المفصل عنها، ذلك أنني أحطتها طفلاً وتمكنت منها قبل أن أعرف،
إنما أشير إليها باعتبارها المرحع الأول لروائح بنات جنسها، أعطافها كانت
خملية، تسبقها وتبناها. لايمت طيها إلى أي عطر معروف من صنع الإنسان،
هي من نهتني إلى اقتناء عرفهن، وتقضي ما يشتملن عليه، كانت نسائهما
متداخلة مع قماش جلبابها الرهيف الأبيض المرصع بالدوائر الزرقاء المنجمة، ما
أخذه حلال ملامسة مباشرة لمسامها. وما تفرزه روحها. وما تخلفه الظلال.
والندثر بالأعطية. والصابون المعطر، ومنابت الشعر الكثيف، علقت بي
وأصبحت فيما يلي ذلك أساساً للمقارنة حتى بعد رحيلها بسنوات وما تزال.
لم أتسم مثيلاً لها إلى أن حضت اليوم.

جرى ذلك في البحر الأحمر ما بين جزيرة الجفتون ومرسى الغردقة، كنت في أحازة مع امرأتي وأولادي، وأثناء العودة في قارب من طابقين. وبمجرد أن وطئته. كأني ولجت خيمة غير مرئية، لكنها عبقة بالعير، ولم يكن وعراً عليّ تحديد المصدر.

شاب وشابة، عروسان، بدا تقاربهما مبهماً، مازالا في البداية ويبدو أنها موفقة، كانت تعلّق صليلاً ذهبياً يتدلى من سلسلة نخيلة، فتحة الرداء برحة تسمح بإطلالة على مفرق النهدين، بدايتهما الثرية، تطلعهما إلى بعضهما مثير للتفاؤل، للحنين، للتقرب من كائن ما في مكان بعيد، صعب تحديده، ما من مشهد عندي يثير عندي الحنين، والترق والتفنن، مثل عاشقين يتبادلان الخنة، لذلك أقرب الطير إليّ اليمام لما رأيته منه عند اجتماع الإلف بأليفه.

الحق أنني بدأت التسلل البصري، تكوينها مريب لمن يتطلع إليها، لوفرتها، وصميمية استداراتها، لكن ذلك لم يكن قصدي، لحضور عريسها هبية لم أشأ انتهاكها حتى بالصمت، ما جذبني شذاها، لم أعرف مثل ذلك، غطت على ما عداها، بل طغت..

تجلس على المقعد العريض الخلفي، قرب الماء المتراجع بزبد الأبيض الكثيف، رائحة البحر النفاذة تتصاعد إلى الفراغ المحيط، يودّ ناشع، زرقة متفددة، أنتبه إلى تزايد فوحها، تجاوره بفيض البحر ثم تجاوزه، احتوائه لما يضمه اليم، مرجانه وكهوفه وأسمائه. أستعيد رائحة عليّة المخملية، الموحية بالأسرار. الراجعة بتفسيرها، بفضها أيضاً. لم تكن هي تماماً، لكنها قرية منها، مصونة، مذكية، أجاجة، محرّكة لما يكمن عندي.

أكف لحظات احتراماً وحسرة، أما الاحترام فلذكرى عطر محبوبة سلافية روسية، كونية، بدأت معرفتي بها في طشقند، وتوطدت في موسكو والقاهرة. ورغم تعدد إشاراتي إليها وتطريقي إلى ذكر بعض التفاصيل أحياناً إلا أنني لم

أَفْضُ إِلَّا بِقَدْرٍ، وَلَمْ أَنْجِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الْبَسِيرِ، الْحَقُّ.. أَنَّ الْمَرْءَ مَهْمَا بَلَغَتْ نَصَاعَتُهُ وَدَرَجَةُ صِرَاحَتِهِ، وَقُدْرَتُهُ عَلَى الْمَكَاشِفَةِ فَتُظَلُّ عِدَّةُ سَاحَاتٍ عِنْدَهُ لَا يَطْرُقُهَا وَلَا يَدْنُو مِنْهَا، وَلَسَوْفَ أَكْتَمِلُ رَحِيلاً بِدُونِ إِطْلَاعٍ مَخْلُوقٍ عَلَيْهَا. وَنَصِيبُ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنْ تِلْكَ التَّخَوُّمِ كَثِيرٌ، كُلَّمَا تَوَهَّمْتُ شَيْئاً مَخْلُوقَةً غَيْرَهَا يُخَيِّبُ ظَنِّي وَيَأْفُلُ وَهْمِي، رُبَّمَا أَلْحَ مِنْهَا قِبْساً فِي هَذِهِ أَوْ تِلْكَ، وَلَكِنْ فِرَادَتُهَا مُطْلَقَةٌ. وَقَدْ بَدَّدْتُهَا بِنَفْسِي وَقَصَّرَ نَظْرِي، صَحِيحٌ أَنَّ الظُّرُوفَ لَمْ تَسَاعِدْ، ثُمَّ جَرَى مَا أَضَافُ عَسْراً عَلَى عَسْرٍ، لَكِنِّي مُسْتَوِلٌ عَنِ الْوُزْرِ كُلِّهِ، وَهِيَ أَنْذَا أَنْوَأُ بِهِ وَأَنْقَضُضُ وَمِنْهُ تَنْبَعُ حَسْرَاتِي.

أَغَارَ عَلَى صُورَتِهَا عِنْدِي إِذَا وَجَدْتُ عِنْدِي نَزْوَماً إِلَى أُخْرَى مِثْلَهُ أَمَامَ حَوَاسِي. أَلَوْذُ بِكَافَةِ الرِّوَايَا الَّتِي عُلِقْتُ بِذَاكَرَتِي الَّتِي وَهَنْتُ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ عِدَاهَا، هَكَذَا حَاوَلْتُ التَّحْصِينَ بِمَا تَبَقِيَ عِنْدِي مِنْ شِدَاهَا، غَيْرَ أَنَّ الْفُوحَ الْمُنْبَعِثَ مِنْ تِلْكَ الْبَنِيَّةِ كَانَ أَوْعَرَ وَأَنْكَبِي، وَجَدْتُ فِيهِ الْخِلَاصَةَ، أَزْدَدْتُ قَرِيباً مِنْ مَخْمَلِهَا، مَا يَنْبَعُثُ مِنْهَا يَوْقِعُ الْجَذْبَ، بِالتَّدْقِيقِ يَتَضَعُ التَّنَوُّعَ، فَلَمُنَابِتِ شَعْرِهَا عَطَرَ، وَلَانْبِعَاثِ نَظَرَاتِهَا، وَلَشَفَتَيْهَا قُوَّةَ السَّوْحِ الْعَنِيرَةِ، لِكُلِّ أَفَقٍ مِنْ آفَاقِهَا أَرِيحُ وَطْلَةَ مَغَايِرَةٍ، تَقْلِبْتُ مَا بَيْنَ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، تَمَرَّغْتُ مَا بَيْنَ ظَاهِرِهَا وَخَفِيِّهَا، مَا بَيْنَ سِدَاهَا وَلَحْمَتِهَا، لَكِنْ أَغْرَبَ مَا عَايَنْتُهُ مَحْجَلَةُ الشِّذَاءِ، فَكُلَّمَا اقْتَرَبْتُ تَرَاجَعَ طَبِيبُهَا، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ رَاحَ مَنِي، يَتَوَارَى، أَجْتَهِدُ لَاسْتِدْعَائِهِ، فَلَا يُمْكِنُنِي ذَلِكَ، لَمْ أَعْرِفْ رَوَاءَ لَشَفَتَيْنِ مَخْلُوقَتَيْنِ كَشَفَتِيهَا. لَهَا رَائِحَةُ شَفَاقٍ النِّعْمَانِ، إِذْ يَشْتَدُّ شَجْنِي أَحَاوِلُ تَلَطِّيفِ حَالِي بِاسْتِعَادَةِ صُورِهَا وَالْفَرَجَةِ عَلَيْهَا. أَوْ قِرَاءَةِ رِسَائِلِهَا بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، أَنْغَمُ كَلِمَاتِهَا، أَرْتَلُهَا.. لَعْلَ وَعَسَى، أَخْرَجَ هَذِهِ الْوَرِيقَةَ الصَّغِيرَةَ الْمُنْتَرَعَةَ مِنْ دَفْتَرٍ، نَحَطْتُ عُنْوَانَهَا بِالرُّوسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّتِي تَجَمِّدُهَا. رُبَّمَا أَخْطُ رِسَالَةً جَدِيدَةً أَشْبِعُهَا إِلَى الْعُنْوَانِ الَّذِي أَنْقَشَهُ عَلَى مَسَارَاتِ نَظْرِي وَدَفَقَاتِ قَلْبِي. يُمْكِنُنِي النُّطْقُ بِهِ حَتَّى لِيُظَنَّ الْمُسْتَمْعُ أَنَّي مُتَقَنَّ لِللُّغَةِ أَهْلُ الْبِلَادِ، مَعَ أَنَّي لَا أَفْقَهُ مِنْهَا إِلَّا حُرُوفَ اسْمِهَا.

العروس تتطلع، عينان جريقتان، ناكحتان، نفاذتان، أيقنت أنها تأخذ
المبادرة عند الخلوة، غير أن أفدح ما عندها نسيمها، ولأنني مدرك موقوتية
الرحلة وقصرها، لم أعد حذراً كبداية اكتشافها لها. وصار حضور محبوبتي الزمن
القديم بدافع إراحة الضمير والاعتذار المستتر وليس الوقاية، تجلس متململة
حاضنة، محرصة، غير أنني انتبهت إلى تمهل القارب، وارتفاع الموج، يتدافع الرذاذ
صوب الجدران الخشبية المطلية بالأبيض، ماذا يجري ؟

تستنفر خشبيتي من الماء، يتقلب اليم، الموج قادم، متدافع، يحل بعضه مكان
بعض، ثمة شيء يجري، أتابع حركة البحار القلقة، لا أسأل، غير أنني أرصد
ذلك التغير الذي وقع بمساحات شاسعة من المسطح المتموج الفوار، يتأجج
كالقدر المغلي.

دوائر صفراء، تظهر، تتصل لتشكل بقعاً أكبر، درجة من الصفرة الخاصة
مصحوبة برائحة تدنو من رائحة المني الطازج. المرسل للتو. وتلك رائحة أعرفها
جيداً. اكتشفتها في الطين المتخمر، والأرض المحروثة، ورصدتها في الفراغ
مواسم تلقيح النبات.

أقف.. أتطلع إلى البحر مدركا لما يجري، مفسراً لنفسني ما يجري القوم، يوماً
ما، مضيت إلى جزيرة في عمق البحر، هذا البحر عينه، اسمها الاخوين، تقع عند
خط الحدود الوهمي المار عبر الماء، كان ذلك زمن الحرب، عندما عملتُ
مراسلاً حربياً بدافع مني لمشاركة أهلي محنة كبرى، ولتهديئة روعي بتواجدي
بين المقاتلين في خطوط المواجهة. كانت الجزيرة نائية، تتمركز بها سرية صاعقة
يتكلم قائدها بلهجة جنوبية حاوثة، مثلها، فما أنا إلا جنوبي الجوهر. هناك
ما تزال الطبيعة في بداياتها، الشفق، وتوالي الفجر، واكتمال العصر والغسق.
ميلاد الضوء، خروج الشمس من الأفق على الصخور والمياه والفراغات
التحتية، العلوية، مع آخر ضوء يبدأ توافد النجوم، بلا حصر، لا يمكن رؤيتها في

المدن، قرية، دانية، وفي الصمت تتردد قعقعات شمولية. قال الضابط إن المنطقة غير مستقرة، إنها بدايات الزلزلة، مع الغروب ينفرد الكائن بالكوّن، يتصل القديم بالحدث، تصفو الموجودات وتشف، بالنظر لمحتّ ذات اللون الأصفر، عين تلك الدرجة، قال قائد الزورق الذي صَحِبْنَا وَجِئْنَا بِهِ، وهو بحار قديم، من أهل القصير، يحفظ دروب البحر من السويس شمالاً إلى باب المندب جنوباً، حتى لينظر في ظلمة الليل إلى الأمواج فيدرك من أصداء النجوم موقعه وإلى أين تمضي وجهته. قال إنه سفاد البحر، قال إن الشعاب والمكونات التحتية التي نعرف بعضها ولا نحيط بالآخر تتوالد فيما بينها، ولها مواقيت تستتار فيها. تماماً كما يجري للرجل أو الذكر من الحيوان، فإذا جرى ذلك تفرز هذا السائل، مَيّ البحر لتتشبع به الشعاب الأنثوية، والكوينات الملقية، أما الرائحة فقوية، تتجاوز المخلودية الأرضية.

أرقب العروس، تميل إلى البحر سافرة عن وجه يتفجر بالرغبة، لم تعد تنظر إلى الشاب الذي انزوى وتشاغل بالنظر إلى ما بين قدميه، وكلما تزايد دفقُ غيرها، قَوِيَ الموجُ، وَاتَّسَعَ الموج الأصفر، وعندئذ انتبهتُ إلى البحار النحيل الأسمر، الجرب، ينقل البصر بين البحر والشابة الفواحة..

بُريقة..

شغفي بالسماع التركي قديم، دلّني عليه - مطلع الستينات - أديب متمكن، عاشق للحياة صحبته زمناً، أعني محمود البدوي رحمه الله. كنا نمشي ما بين قبة الغوري ومسجده، كان يحمل حقيبة أوراق سوداء، عندما قال :

"وفي الليل أدير المؤشر إلى إذاعة استانبول. أسمع البشارف والموشحات فأجد منها ما يُحدث عندي شجناً.."

لا أذكر الآن السياق الذي قيلت فيه العبارة، لكنني أستعيد إصغائي الأول. وبعده لزمْتُ، لا أعرف اللغة. غير أنني ألمت بالأصوات. لها عذوبة وتمكُّن، حددت مواضع البث ومواقيتة. وسجَّلت ما تيسر في ليالي الصفو عندما يصل الصوت نقياً، واضحاً. خلواً من التشويش. خاصة ليالي رمضان التي يمتد فيها السهر حتى مطلع الفجر. كلما سافر صاحبٌ إلى هناك رجوتُه إحضار بعض التسجيلات، هكذا تجمع عندي مالا بأس به، غير أنني لم أكف عن التطلع إلى الرحيل، ونزول تلك الديار لأختار وأصغي إلى الأصوات الشجية إذا ما سنَّحت الفرصة. إلى أن تحقق ذلك عام ثلاثة وتسعين، عندما جئت إلى استانبول وأقمت بها أسبوعاً. جئتها من قبلُ عابراً. مرة أمضيتُ فيها نهراً عندما قطعْتُ المسافة بجرأ من الساحل البلغاري في مركب سياحية، والثانية لمدة ثلاث ساعات وكنتُ في الطريق إلى بغداد من وارسو. والثالثة عندما وقع خلل في الطائرة المتجهة من القاهرة إلى موسكو. أمضيتُ ليلة غريبة لكن ما جرى خلالها لا يناسب هذا التكوين. خلال الأيام السبعة جسَّمتُ في دروب المدينة القديمة. تذرَّرتُ بظلالها. واحتويت لحظاتها الغروبية. رمادية مبانيها، انتشيتُ في مقهى "علي باشا مدرسة". القائم بين مقابر دراويش المولوية الغارين، ترددت مراتٍ على المعرض الفسيح للأشرطة والاسطوانات القريب من السوق المغطى. خرجت منه قبل إغلاق بوابات السوق الرئيسية، كنت متعباً لكنني راض بما أقتنيته.

توقفتُ عند ساحة صغيرة تعبرها العربات. لحظات مغادرة القوة المباني الضخمة والمتاجر. يتدفقون إلى الطرقات، إلى الحافلات، إلى أماكن الانتظار، بعد قليل تُقْفَرُ الطرقات، تخلو إلا من الغرباء وسفي الرياح وزخات أمطار متفرقة وزمن غارب.

كنت متعباً بعد تجوال ساعات. استندت إلى عامود صغير من حجر، لم أتوقع شيئاً غير عادي، شغلني الوصول إلى الفندق. عند هذا الحد جرى ظهورها.

لم تكن راحلة، إنما بزغت راكبة، تقود سيارة رمادية، تتطلع إليّ، كم استغرق بقاؤها في مجال بصري؟

التحديد وعمر، لم يكن ظهورها إلا عابراً، مفاجئاً، لكنه امتد عندي إلى ما قبله وما بعده، هذا الظهور المباغت، الخاطف ليس جديداً عندي، جرى لي مرات، أذكر منها صباح ذلك اليوم، عندما كنت أقف مطلاً من نافذة قاعة الرسم بالطابق الرابع من مبنى المؤسسة القريب من النهر، كنت أعمل بها مصمماً للسجاد الشرقي الذي درسته. خاصة الشيرازي والتبريزي وبخاري الياقوتي الذي برعت فيه، كان الضوء حليبياً والوقت معيماً والفراغ حليّ بالوهج القادم من فرن الحلوى هناك في الطابق الأول، كنت أفكر في تخطين بالتحديد قائمتين بفناء وكالة بازرة في الجمالية، كيف نفذتا من زمن إلى زمن حتى وصلتا إلى وقتنا؟ فجأة فُتِحَ الشباك المواجه. رأيتُ أنثى بهية، روية، تفرد ذراعيتها، تواجهني عارية تماماً. ولا أظن أنني قابلت نهدين في مثل شروع ونفور واكتمال ما ووجهت به. لم أستطع إبداء أي رد فعل، وعندما كدت أفتح فمي أغلقتُ النافذة، وانتظرتُ أربع سنوات، مُدَّة مكثي في المؤسسة قبل أن أغادرها مرغماً، منفياً إلى الجنوب، لم تفتح قط، ولا أراها إلا مغلقة كلما مررت وتطلعت، ولم أنقطع.. لعلّ وعسى!

مرة أخرى. كنت في روما، بعد منتصف الليل توقفتُ العربات عند ظهور الضوء الأحمر، إلى جوارى واحدٍ ممن أحببتُ وصحبتُ وتمنيتُ دوام الرفقة، غير أن القدر لم يُسعِفني ولم يعمله. أعني شادي عبد السلام صاحب المومياء رحمه الله. كنا في نشوة بتأثير نبيذ جيد. وطعام بحريّ متنع. ولا أذكر الآن

موضوع حوارنا، لكنني أكاد أرى لحظة فتح باب العربة المجاورة واندفاع شابة عارية تماماً. حافية. ضفيريّتها الشهباء الغليظة. تهتزُّ على ظهرها وتناوشُ مفرقَ رديّتها الأشمين، صحتُ :

"انظر يا شادي .."

تجري بين السيارات التي بدأت الحركة.

"شادي.."

تطلع منمهلًا، قال بتأنيء الذي عُرف عنه إنه لا يرى شيئاً، وحتى الآن لا أدري إذا ما كنتُ رأيتُ أم أنه لم يشاهد كما أصرّ. غير أن تلك الملامح التي برّقت قرب السوق المغطى أحاطت بجهازي، لم أدر أن جملة نطقها محمود البدوي ستجّه بي إلى حيث ألقى ما ألقى، ولا أعني انبثاق هذه الملامح البديعة، إنما جرى لي ما يتصل بتلك الديار ما سأذكره في موضعه. علقَ الوجه كالأيقونة في فضاء روحي، اعتبرتُ سنواتي كلها منذ أن أصغيت إلى عبارة البدوي مقدمة لرؤيتها، لكن.. ما هذا كله إلا تفسيرات ومحاولات للتهدئة، لتقوية الأمل الحاث على وقوع البصر عليها مرة أخرى، احتواء طلعها النضيد.. استنفرتُ

التشبيه وعر، لكن ما بقيَ عندي منها لوانان اثنان، أصفر وأزرق بكافة درجاتهما، واشتقاقتهما، صبغَ شعرها الأشم، المسترسل من كافة اللحظات الغروبية.

موضع عينها حثان من فيروز مصهور. زرقة صافية تفيض وتضفي عمقاً، وكان ممكناً أن تطغي لولا أنها مؤطرة بالضوء. عنقٌ نفيرتيّ الميل. وضعُ الجلوس ملكيّ. سياديّ، منه الأمر ولّة الطاعة.. هل أواماتُ ؟

اختفت عند المنحنى. من المستحيل اللحاق بها، هي راكبة وأنا راجل،
تطلعتُ إلى الجهة التي قدمت منها، حدثتُ، أمنتُ. لو أشرقتُ تلكِ الطلة، لو
تكرّر هذا الظهور، يبدو أن انتظاري طال. أَوْحَشَتِ الطرقاتُ، وأَعْتَمَتِ
الأركانُ. وَدَنَا شرطيُّ مدحجٌ، طلب أوراقي، أعاد الجواز الأخضر بعد تفحصه
وتطلعه إليَّ مرات، لم أعبا. كان ثمة دفة كامن يتحول ببطء إلى لهب، هل بدأ
معه؟ تذكرتُ النقاش القديم حول النار، أهي كامنَةٌ في الحجر أم نتاجُ
تفاعلات؟

نسيتُ حَذَرِي، خشيتي من المخاطر المجهولة التي أتوقّعها وأخشى وقوعها في
المدن النائية، صرتُ إلى حال خيرته من قبلُ، لكنه لم يبلغ هذا العنفوان، لا
الْقُعود ولا الوقوف ولا الرقاد جالبٌ للراحة، أتق أن توقّفها لحِيظَةً في
مواجهتي، تطلّعها إليَّ يتضمّن رسالة، يحوي نبوءة.

ما مضمونها ؟

هذا ما أحاول أن أقفَ عليه، لم أُلجأ إلى عربة أجرة إلا بعد منتصف الليل،
في الفندق تجاهلتُ الأسئلة وأجهضتُ أي سعي للحوار، نزوعي إلى الانفراد
أقوى من أي دافع آخر، في اليوم التالي جمعتُ. رهبة الغسق تعكم قلبي، لم يكن
مشروعُ إقامتي مجرد فكرة، إنما وضعتُ الخطط قبل نومي، لم أدر أنه سيتفق لي
بعد حين غير بعيد، صباحَ اليوم التالي رتبتُ حاجاتي، سفري بعد الظهر، كنتُ
أمشي كالمنفيّ مع أنني أعود إلى موطني. لم أكفَّ عن استعدادتها في لحظات
صفوي، ونوئي، عند إقلاعي، عند وصولي، في كل جمع شاركته، لكنني لم
أتوقع قط أن أستعيدها، أن يتجلّى لي بريقها الناعم، النفاذ، القارئ. المقرئ.
هناك حيث لا أتصور. ولهذا تفصيل أذكره ليس لغرابته، إذ عرفتُ أموراً
عجيبة، وأخرى مثيرة للروع. لكن أدون ما عاينت لخروجه عن كافة ما
عرفتُ، وسائر ما تَمَنّيتُ.

جبرينية

رأيتها، انفردتُ بها وجرى بيني وبينها ترسلُ في عُمان، انفجر حضورها في
استانبول وجرى التحقق في حصن "جبرين"، لكن.. قبل التطرق لابد من
وصف حال عرفته، أعني تحققُ ما نتوقع حيث لا يُخطر لنا ببال، وربما كان
الموت أجلى مثال. ذلك أنه يواتي بغتة، حتى مع تهيب الحال، مثل الحرب
وسلسال المرض. لا يمكن تعيين اللحظة التي يكتمل عندها ويحل، لا يرصده إلا
صفوة من خلاصة القوم أوتوا قدرة على رصد ديبه والمصالحة معه، ومن هؤلاء
نُدرةٌ يمكنهم التنبؤ بدقة.

أما حالي فوعر، ذلك أنني دائم المنازلة لمن لا يُدرك، لذلك طال صراعي مع
نفسي، ليالٍ ثقيلة الخطى تدب عليّ. أتوقع اكتمالي، ألا تطلع عليّ الشمس،
غير أن ما أتوقعه لا يتحقق، لم أكف رغم يقيني غموض اللحظة، وجهلي
بالمختتم، يطول عنائي فيخيّل إليّ أن احتضاري بدأ عند ميلادي!

مانرغبه، مانرهبه، يحل دائما حيث لا نتوقع. خرجتُ من الفندق ذلك
الصباح الحارّ، مضيتُ بصحبة صديق حميم، أحمد الفلاحى نزيل مسقط، عرفته
عند إقامته القاهرية التي امتدت سنواتٍ عديدة، نادرٌ لقاؤنا إلا أن الودّ
موصول، وإذا نلتقي بعد غيبة سنين نستأنف حديثنا فكأننا لم نفرق إلا بالأمس.

مررنا بنزوى، توقفنا بأسواقها وحصنها. وتحسّر صاحبي على نقص المياه في
أفلاجها وموت كثير من النخيل، وتناقص الخضرة. حلّنا بقلعة الرديدة، توقفتُ
مصغياً إلى الصمت داخل الأفنية الداخلية حيث اللانهاية مستوعبة، والأسوار
لا تلغي الإحساس بالخلاء الممتد، ثم.. بلغنا "جبرين". وعند دوننا أدركت أن
ما مررنا به مجرد مراحل، مدارج وصول إلى هذا الحصن وردّي اللون، منذ

اقتربنا بدأ عندي استنفار غير مبالغ فيه. بيوتٌ قليلة متباعدة. متواضعة، النخيل غالبٌ والأشجار قليلة.

بعض الأماكن تمنحني الإحساس بالبداية، وأخرى تؤكد لي نهاية ما، هنا مفتّحُ الخلاء الكوني، أفقٌ راسخٌ هادئٌ قريب، بعيد، وسطه ينبثق البناء من مسافة معينة يبدو دائرياً، مصمتاً، مع قطع مسافة باتجاهه يبدو مربعاً، ثم مستطيلاً، متصلاً ببعضه ومنفصلاً، إذا وقف المرء القادم من عمق المدى يراه كما يشاء، مستطيلاً أو دائرياً، جدرانٌ مصمتةٌ تماماً أو مرشوقَ الفتحات. بالنسبة لي جرى عندي توقع وتشوف.

باب صغير مؤدّى إلى الفناء التمهيدي، باحتيازه يتمّ العبور من حضور إلى حضور. من واقع إلى آخر مغاير، بل.. من كون إلى كون، بابٌ ضيقٌ، لا ينبيء أبداً بما يليه، لا يتيح الولوج للقائمة المنتصبة، لا بد من انحناء شديد، لعمق الصمت يمكن الإصغاء إلى صوته. هسيسٌ يُرى بالنظر.

سجنٌ إلى اليمين، عند الحافة، أول ما يقابل الداخل، وآخر ما يراه الخارج، فتحةٌ لا تتيح الدخول إلاّ للمنحني، مخزن التمر، تمتد داخله ألواح خشبية بينها فرجات تتيح للعسل أن يتدفق إلى أوان خزفية، ترتقي درج سهل، محرض على الصعود. على الإيغال، عند مستوى مرتفع قليلاً حجرات النساء، تحتنن مباشرة السجن، سقفه أرضية جناهن، أرصدُ الرغبات المكمورة والفورات المقموعة، والأحلام الكائنة، أجيلُ البصر مصغياً، أصغي إلى المتبقي لا أدري أي تعبيرات مرت، بدت. دعت صاحبي أحمد يتساءل :

"فيه شيء"

نفيت، عاد يستفسر :

"أنت متعب ؟"

قلت : أبداً .. أبداً.

لكنه بدأ يتخلف عني، يتيح لي الانفراد، ولا يتكلم إلا نادراً، حتى أدركتُ
بعد لحظات أنني بمفردي، وأنه ينتظر في مكان ما، وأن اللقاء سيتم في النهاية،
المسار محدد، صارم، مرتب.

ممر قصير، بداية سلم متعدد الدرجات، ضيق، زاوية ارتقاؤه مصممة بحيث
لا يمكن رؤية آخره حتى مع الصعود، مستمر، ما من شيء يليه. هذا ما خيّلَ
إليّ في الممر القصير، أيضاً في جناح النساء، يبدو أي جزء وكأنه الكل، لا يليه
شيء.

قوس حجري يعلو السلم، وللأقواس عندي شأن، ولي في مواجهتها أمور.
وللأقواس أمة في مسجد قرطبة الجامع، المنحني عندي أقرب، إنه الأنسب
والأدق تعبيراً عن المسيرة، فكل الخطوط، كل الطرق بها ميل، ولو أنها
مستقيمة لما أدت إلى غاية، فلا يؤدي الطريق إلى آخر إلا إذا كان به ميل،
الاستقامة وهم. لأن الكوكب دائري والكون أكرى.
أعلى القوس أبيات، أتوقف لأقرأها، ثم لأنسخها ..

نزلنا ها هنا تم ارتحلنا

كذا الدنيا نزولاً وارتحالاً

ظننا أن نقيم بها ولكن

مقام المرء في الدنيا محالاً

٣١ محرم ١١٣٩ هجرية

ما يقرب من ثلاثة قرون. من أنشد الأبيات رحل، ومن كتبها مضى، ومن
يقرأها الآن سيتبعهما.. اقرأ ما يلي الأول.

ولا بد أن أسعى لأشرف رتبة

وأحجب عن عيني لذيد قيامي

وأفتح الأمر الجسيم بحيث أن

أرى الموت علفي تارةً وأمامي

ينتهي الدرج إلى بسطة تليها زاوية، باب خجول متوار، حجرة فسيحة،
نقية الضوء، تبدو مصمتة، لكن بعد تدقيق أرى نوافذ وبايين، لا تظهر الفتحات
إلا عند الحاجة إليها.

أتأكد مما وضعت يدي عليه، كل موضع يبدو كأنه الغاية، الخطة القصوى
التي لا تليها أخرى، لكن.. عند لحظة معينة، موضع بعينه، ربما مع الحركة، مع
النظرة، مع حلول خاطرة وافدة، مع بلوغ نفس معين إن شقيقاً أو زفيراً، ربما
مع دفقة قلب. تُرى.. كم دقة، كم خفقة منذ رجفة الأولى حتى رعشة
الأخيرة، هل يمكن الإحصاء والتدقيق مع مراعاة التمهّل والهروع خاصة عند
تحقق العشق؟

مع توالي الأنفاس تظهر الانفراجة، تبدأ الصلة بالمرحلة التالية، هكذا يتقدم
المكان مصحوباً بالزمن الخاص به. تولد الغرفة من سابقتها، يخرج الممر من
الممر، ويلى الدرج شبيهه، هكذا يمكن الاستمرار إلى ما لا نهاية، أو.. إلى حد
معين يصعب التنبؤ به، بل إن بعض الأماكن توجد بمجرد التفكير فيها، وتختفي
مع اضمحلال التصور، هكذا تتباين المساحات طبقاً للحالة النفسية التي يمر بها
المراء. فإذا كان مغموماً وعنده شجى تتقارب الأسقف وتدنو الجدران. وبحلول
الفرح وتفجر النشوة تتسع الصالات ويبدو بعضها أفسح من ميدان.

رغم فرحي وانبهاري باكتشاف الخاصية لكن قلقاً بدأ يسري، أصبحت الآن أترقع غرفاً أو قاعات تالية، هكذا يقوم ما تفتلت، ويمتد ما رغبت، فمتى المخرج؟

أين سألقى صاحبي أحمد الفلاحي؟

لا بد أن من سبقوني كان لديهم تصور محدد، مُسبق، يعرفون عدداً معيناً من الغرف والصالات والطوابق. أوصاف مدونة لا يستطيعون تجاوزها. لكن ما وقعت عليه، ما تأكدت منه لم يُخبر عنه أحد.

أستعيد ملامح صاحبي، هل كان يعرف؟ هل أطلع على ما بدأت أدركه منذ بلوغي أول الدرج؟ عندما بدأ يتراجع ليتركني أتقدم وحيداً، لماذا لم يطلعني إذن؟ دائماً ينظر إليّ حائراً، مستفسراً. حجمه الدقيق، نحوه الهادئ، لحيته وعيناه العميقتان، كيف لم أنتبه إلى طلته الماضية إلى بعيد، كيف لم أنتبه؟

أتمهل.. كم مضى عليّ؟

تنبى الساعة حول معصمي أنني أمضيت ساعة أو ساعتين منذ ولوحي، لكن يمكن أن يكون ذلك اليوم أو أمس أو الشهر الماضي أو منذ عامين أو بعد سنوات! للزمن إيقاع خاص. وإلا لماذا أوقن أنني تقدمت في العمر مدى، وأنه دُفِعَ بي عدة مراحل بعيداً عن لحظة ميلادي، جرى الكثير في الزمن القليل وهذا ما سيقع لي مرة أخرى في وضع أحلى وأوضح. أمضي بطيئاً مستوعباً ما يتكشف لي. خصائص وأحوال لا تبدو إلا لمن عنده التمكن واحتمالات القبول. من يحدد؟ من يفرق بين من يتفقد البناء فلا يدرك منه إلا الجدران والقاعات والممرات والمنحنيات، وبين من ينشئ التكوين طبقاً لما يترأى له. لما يردُّ على مخيلته؟

لا أعرف، وما من إجابة شافية عندي، أو لدى صحي من أهل عُمان،
الذين عرفتهم على البعد، أو أولئك الذين اقتربت منهم مثل صاحبي الفلاحي
والرجي، عند مرحلة معينة تفتحت لي طيقان أربع، كل منها توازي جهة من
الجهات الأصلية، من إحداها كان الإمام بلعرب يتطلع في لحظات معينة فيرى
الضفاف كلها قبل حوالي أربعة قرون. يجتاز الواحة المحيطة ببصره. والمرتفعات
النائية أو الدانية، يبلغ ضفاف الأفلاج والأنهار الجارية والبحيرات الشاسعة
والمحيطات الخضم، الضفاف الفاصلة بين اليابسة والماء، بين المخلود واللانهاثي،
بين المدرك المعين وما لا يمكن بلوغه. إنها الفوارق؛ أدق حتى أدرك مسارات
كل تطلع تم عبر تلك الطاقة. بل وألم بالانعكاس الواقع على الحدقتين. أصغي
إلى أصداء شهيقة وزفير لعابرين قدامى. أبلغ قاعة النجوى. مستطيلة، ممتدة، لا
يتم الجلوس فيها إلا لفرد، بشرط أن يصمت، أن يتأمل، أن يطرق متأملاً،
مدبراً فحص الأحوال، فإذا خرج عن هذا الحال اختفت.

القاعة التالية للمفاوضة. كان الإمام بلعرب بن سلطان اليعربي يجتمع فيها
عن حاء لمشاورته، أو نصحه، أو مفاوضته، لا يكون بمفرده رغم أنه يبدو
للقدام، الغريب وحيداً، ذلك أن الحجرة محاطة بخندق يكمن فيه حراس أشداء
مدربون على الظهور المفاجئ عبر الأبواب المتحركة المخففة بأبسطة فارسية.
يظهرون عند سماع صوت معين فلا يقدر على ردهم أحد.

مكثت وقتاً غير محدود في قاعة النجوى، لا أظن أنني بلغت مكاناً في شتتي
مرات ترحالي يجسد الإحساس بالعزلة كما أدركت في تلك القاعة بعداً قصبياً،
ونأياً موعلاً، لم أعرف هذا التوحد بالصمت حتى في أيام سحني بزنزانة القلعة
المعزولة، هنا تنبت كافة الصلات. حتى لتكف الصور عن التدفق إلى الذاكرة،
يتلاشى كل صدى.

دخول من باب، ودخول يليه، ما من خروج، لا يتشابه ارتفاع بآخر، كل موضع طابقي بمفرده حتى وإن كان موازياً، كل غرفة أو ممر أو موضع ذو قياسات وزوايا مغايرة. كأنه غير متصل بما يليه مع أن الجدار واحد في أحيان كثيرة.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى قاعة الشمس والقمر، المؤكد أنها لا تلي غرفة النجوى. عبرتُ قاعات متتالية لا بد من المرور بها بسرعة، أحياناً.. يجب الركض، ولكثرتها من الصعب استعارتها أو استرجاع تفاصيلها. عند الوصول لا يمكن للدخول إلا التطلع تجاه النوافذ الطولية، المزخرفة، الزجاج الملون المحيط بها المعشق في الجبس ناصع البياض. تتوزع على مجموعتين، كل منها تضم سبعة، متصلة، منفصلة.

سبع نوافذ للشمس

سبع نوافذ للقمر

ضوء الشمس الأصفر بكل درجاته لا يتخلل نوافذ القمر. ضوء القمر الأزرق لا يعبر فتحات الشمس، أما هسيس النجوم فينفذ منها كلها، يتركز في ليالي غياب القمر حتى يمكن قراءة كتاب دقيق الحروف.. هكذا جرى التصميم. وهكذا شاء المصمم، لكن.. هذا ليس كل شيء. إذ وَضَح الأمرُ بحيث تكشف السماء من كل نافذة عن بعض مكنونها، فمن النافذة الأولى - شمسية أو قمرية - يمكن رؤية الأبراج كلها. ومن الثانية تبدو مجرة درب التبانة بما تحوي، ومن الثالثة تلوح كوكبة الفرس كأنها في متناول اليد، ومن الرابعة يمكن بعد تدريب وصيانة رؤية الأكوان الموازية..

في كل لحظة يتبدل الضوء ويتغير، من هنا تلوح درجات يصعب حصرها لكلٍّ من الأزرق والأصفر، أما دخول الشمس فيتم بهدوء خافت، لا تبعث قيظاً، ولا تنبئ بحرارة، يكون الفرق شاسعاً بين ماهي عليه في الخلاء

الصحراوي المحيط، والفراغ الرطب، العفيف، اللطيف، المضموم، لا تت
الحرارة ولا تبدل إن صيفاً أو شتاءً.

استعدت وقفة صاحبي الفلاحي. رعدةٌ سرّت عندي.. بقدر ما فيو
رقّة، بقدر ما تخوي من غموض. هل توقع أمراً؟

يغمرنني الأصفر بصحبة الأزرق، يتدفق ليحتويني، عند درجة معينة،
ملاحمها موزعة على نوافذ الشمس، نوافذ القمر، كوثية الطلع اذن، تلك
لا تمت إلا لمن أخضعتني لها عند السوق المغطى في مدينة استانبول. "حج
هناك. السوق المغطى هنا.. لافرق، تتضامّ الأمكنة عندي بعد ظهورها
بين النوافذ الأربعة عشر، مصوغة من لونين لاغير، تماماً كما طالعتها أو
دانياً من مشوقية قوامها، وأنوثية فيضها عبر الخلاء السحيق، لاغياً كل
طاويا كافة ما عرفت..

سَعِيرُهَا

إذا قُدِّرَ لي قياس الوقت الذي استغرقه بصري في التطلع والرنو.. ثم
المقارنة، سيكون الزمن الأطول من نصيب البحر وتلك الأنثى الفواحة
الطبلاوي بالقاهرة المعزية، أنرى الله أيامها وأصلح أحواطا.

'كنا نقطن الطابق الأول بعد الأرضي في بناية حديثة نسبياً بالقياس إ
بيوت الحارة المشيّد معظمها في نهاية القرن الماضي ومفتتح الحالي. تعرف
البيوت بأصحابها أو أشهر من أقاموا بها. اشتهر منزلنا باسم وكيلة مال
اسمها "أم كوثر". متوسطة الطول. ممتلئة، هادئة الصوت، تجيء أول كل
لتجمع الإيجار وترسله إلى صاحبة البيت المقيمة في بني سويف ولم يرها

وقيل إنها مقعدة لا تقدر على الحركة. أما "أم كوثر" فتقيم في حارة "بيرجوان" المتفرعة من شارع "المعز" والتي سكنها مؤرخ المدينة الشهير "تقي الدين المقرزي" قبل حوالي ستة قرون. لسبب مالا أطلع عليه الآن صحبتُ أبي عصراً لزيارتها. كانت واجهة المنزل الذي تقيم به بيضاء تتخللها نوافذ خضراء.

يُعرف البيت باسمها حتى الآن رغم رحيلها وبيع البيت إلى ملاك آخرين، يواجهه بيت الباجوري، من طوب أحمر، بوابته من حديد أخضر، لا يفصله عنا سوى عرض الحارة، حوالي خمسة أمتار، مسافة يمكن عبورها سماع الحوار الدائر في الناحية الأخرى بصوت عادي، في الليل يمكن الإصغاء إلى أنات النائمين وهمهماتهم، إلى وقع الخطى وتدفق الماء من الصنابير عند الشروع في الوضوء أو الاستحمام!

أربعة طوابق ..

الأول الأرضي، الخالي من الشرفات تقطن عائلة "أبو فريدة" ..

الطوابق الثلاثة الأخرى يقيم بها أشقاء ثلاثة، ذكران هما حسن - مسحراتي الحارة، ومحمد، وأنثى هي عائشة، الأرملة، المقيمة مع أربعة: بنتين، وابنتين أحدهما موظف بالمطابع الأميرية.

شقتنا تشرف على "أبو فريدة"، امرأته - أم فريدة - شابة، جميلة، عَفِيَّة، فنية، متمكنة، لافقة، تبدو أصغر سناً من زوجها الذي يعمل بمصلحة البريد، كنت أتطلع إليها عبر فرجات النافذة الخشبية أراها ولا تراني، أو.. هكذا حَيَّل إليّ، إذ تحتها مرات تنظر تجاهي وتضحك إما بصوت مرتفع، أو بهدوء ماكر، كأنها تعرف وتبلغني علمها بوقفتي، تحرك مؤخرتها المتأججة.

اعتدتها، في وقت معلوم، عصر كل يوم، مابعد الخامسة، تفتح النافذة، تشرف على الدرب، ثمكث طويلاً، إلى ما بعد الغروب، رغم محدودية المارة،

ظهور الغرباء نادر، الحارة سد، لا تؤدي إلى مكان آخر، حتى الباعة المتجولون
مألوفون، معروفون، بدءاً من محمد بائع الصحف إلى مصطفى الذي يظهر قبل
الغروب، وراءه حَمَلُهُ المحمّل بالذرة المشوي، مجرد التطلع عبر النافذة يتيح
الفرجة، ويعني التوق، ويسمح بتبادل تحية مع جارة أو حوار عابر، وعرض
صامت متدفق لذلك الجسد الذي يرسل أصداءه بعد أكثر من ثلاثين عاماً
فيشعل ويحرض. النافذة ذاتها هدف، تلك الفتحة المربعة أو المستطيلة دائماً
واعدة حتى وإن كانت لا تؤدي إلى شيء.

سرير منخفض عريض، أرقبها بدءاً من صعودها فوقه، تقدمها على أربع،
اتكائها بمرفقيها على حافة النافذة، هكذا يكتمل حضور حصرها النحيل
ورديها الرايين، الجوهريين، يغوص الجلباب الرهيف بين شطريهما فيسفر
ويشي، أما صدرها الناهض الأشم فيستريح إلى قاعدة النافذة، لمثانته وفيضه،
تبدو كأنه تختمي به، تقف خلفه، يتوزع ثراء معمارها على تكوينات عديدة،
أدركها في مجملها وليس في تفصيلها، رعدتي المصاحبة لظهورها لم تتكرر
عندي قط، لم تثرها أي أنثى رأيتهما فيما تلي ذلك على البعد أو القرب. لكم
توهمنها، لكنها لم تتفق لي. ولولة شهوية، تندلع بمجرد فتح النافذة وظهورها،
يعني ذلك اتقاد البورة، ودنوي من سعي لا يهدأ. شيئاً فشيئاً توطدت الصلة
بين جسدي وجسدها رغم استحالة التماس وانتفاء اللقاء، وبحر التساؤل
والجأوة.

هرثتها. صرت إلى فلکها، أغلقت باب الحجرة الضيقة، تتسع لسرير وصوان
ومنضدة صغيرة أرسّ فوقها كتي، أقول لأمي: إنني ماضٍ إلى إغفاءة حتى
يمكنني السهر ليلاً، على مهل أمضي إلى مرصد اطلاعي، لم تخلف ظهورها
قط. في توقيتها المعلوم تبدو، تمررني بمراحل أتقتها، منها الترقب، والتوقع،
والتهلل، والمقاربة والتمعن، والتوقد، ثم .. الهدد.

أوعرها الترقب، ما قبل ظهورها، ما يسبق صرير المصراعين عند انفراجهما،
أمتعها استنفاري لالتقاط الأوضاع العابرة، مثل حركة جسدها عند تهيئتها،
تأودها، ميل قوامها.

لا يصلني بها النظر فحسب، إنما شتى الخواس، رائحتها، عطرها، عبقها
الخاص يلتقطه أنفي بالبص، دنوتُ منها مرتين، الأولى في الطريق عند إبحارها
عبره ملفوفة في الملاعة السوداء الطرية الحباكة، والثانية عندما زارتنا وقعدت
بجوار أمي، وصافحتها مرحباً بعينيها المكحولتين، تمكنت من عطرها،
واحتفظتُ به سنوات طويلة، واستعدتُ في أماكن قصية، واقتفيتُ عبر أنحريات
لعل وعسى، وكلما وردت صورتها عليّ غمرتني نسائمه، إشهارها أنوثتها،
فيتجدد توقي كائني أطلعها أول مرة، حركة يسيرة من ريانة قوامها، من
حضورها العسلي، تقلقلني، أما مفرق نهديها ومنحنى كتفيها فيثيران ذهولي،
ويلغان بحيرتي المدى، وقد أبلغ مرتبة الخطوة، أو أهوى متسولاً في عين اللحظة
التي أحتويهما بالنظر.. صرنا إلى توافق عبر المسافة، تتحرك فأتململ، تبرز
عجيزتها فأسعى إلى الإحاطة. كنت دائماً في موقع رد الفعل لما تقدم عليه من
تحركات يسيرة، محسوبة، حتى وقعت المباغثة عصرَ ذلك اليوم الذي أطلتُ فيه
مبكرة قليلاً، ذلك أنني اعتدت طوال شخوصي مناجاتها بألفاظ رقاق،
وكلمات لا تنطق إلا في لحظات الانفراد وفقدان الزمام، فيما بعد حرصتُ
على تدوين ما يُلفظُ أو ما أصغي إليه. ليس في لحظة نطقه فهذا محال، لكن..
بعد انقضاء المتعة وفض الاندماج.

كنت أناحيها، ألاغيها، أصفها، أحكي لها ما يتردد عندي. خطر لي ذلك
العصر أن أطلب منها اتخاذ وضع يخرجني عن مداري، إذ تمل لتتبع ثقل نديها،
ميرزة تقب استداراتها..

تجمدت شاحصاً، ذاهلاً، كما تثبت ألسنة اللهب لحظة شوبها قبل تدافعها
مميناً ويساراً، فوجئت بها تلي، مثقنة الحضّ والرغب، في البداية ظننت الأمر
صدفة، عندما نطقت رغبتي في جلوسها قعدت، وعندما رددت بدون نطق لهفتي
على رؤية مقدمة ركبتها الريانتين راحت تحسر الثوب!

لم أنطق بحال إلا واتخذته، ولم تجلّ بي رغبة إلا ولبتها. هكذا.. ترسخ
عندي منها اعتيادي على البعد، حتى انتفى عندي القرب. أو صوت أُنذرى
عند تحقّق بحثاً عن بُعد مغاير، خاصة بعد أن تماديت معها فأطلعتني على ما
أشعل عندي جذوة نادرة.

حتى وقوع ذلك كنت قانعاً بما تيسر، عاشقاً لما تسفر عنه، راضياً بالمتاح،
فرحاً بطلاتها الحذرة نحوي، إدراكها أنني أرقب وأتمنى وأرغب وأفعل بلا فعل!

إلى أن أقدمت فطلبت التجرد، مدّت ذراعيها، جذبت مصراعني النافذة
قليلاً. ما تبقى من انقراحة يتيح لي الظلة والتمعن. تراجعت بتودة وعيناها إليّ،
أدركني ملمس نظراتها، أزاحت الحمالة اليسرى، ثم اليمنى، بدا نهدها رائعي
الاستدارة، شديديّ التطلع. لهما وقفتهما السماء، انخسر التوب فبدا محل
التكرين وصوان الحياة، عمارتها صاعدة وأساسها مذكوكا. راسخاً

صرت إليها وعندي دفء بدأ تصاعده بلا تراجع، حتى اكتمل شوبه
فصرت أتنفس لهاً. ولم يكن ثمة بديل لإيقافه أو الحدّ منه إلا التجرد تماماً مثلها
وتجاوز كل عقبة. وعبور الفراغ، وطلب النجدة..

مُورِيلِيَّة

ما بين ذلك العصر الذي تنفست فيه هباً، وبين اندلاع تلك الشواظ مرة ثانية واحد وتلاثين عاماً. وأكثر من عشرين ألف كيلو متراً، في الاحتراق الأول تذريرت وتناثرت هباً، وفي الثاني تلملمت وبعثت..

عند كموني وتطلعي في درب الطبلاوي جرى الرحيل بالمخيلة، بتوالي الأحلام والرؤى. إلى أين؟ لم أكن أعلم وقتئذ. متى وكيف؟ كنت حلواً من الخططة، لكننى متوثب، متأهب للانتقال.

وقتئذ لم أسمع بمدينة موريليا، لم يحل بخاطري بلوغ المكسيك، ربما تردّد البلد عندي من خلال فيلم شاهده في سينما الكواكب بالدراسة عن زاباتا زعيم الثورة.

بعد ما يقرب من ثلاثة عقود وصلتُ إليها بعد سفر دام يومين تقريباً بالطائرة ثم بالسيارة من العاصمة إلى المدينة التي تقع وسط البلاد، للطريق المؤدي خصوصية لم يكن صعباً رصدها، خاصة أنني في بلاد نائية قد لا أبلغها مرة أخرى.

لحظة دخولي ساحة الفندق العتيق دُهِشْتُ وارتحت، أما الدهشة فلرؤيتي تلك الأقواس الحجرية، والحديقة الداخلية، وتنوعات الضوء، تماماً مثل المسافرين، وبيت السحيمي. أو منزل جمال الدين الذهبي، عناصر مشرقية جاءت مع الأسبان الأندلسيين. يفنى الوجود، تختفي الألسنة، تبدل اللغات. لكن تبقى عناصر العمارة.. آخر ما يفنى ويتبدل، صرت مؤنساً بالأقواس، بالحنيات، المقرنصات والحجرات ذات القباب.

يبعد المركز الثقافي حيث تعقد الاجتماعات سبع دقائق مشياً، استفسرت من زملاء المناسبة والمرافقين عن ظروف المدينة، وإمكانية التجوال ليلاً، نصحت بالحذر بعد الغروب، ليس بسبب اللصوص فقط. إنما لنشاط بعض الجماعات الثورية المعارضة، ذات صباح استيقظتُ على أصوات حادة عبر مكبر صوت يدوي. كلمة "ثورة" بالإسبانية تُنطق منغمة، ممدودة، حازمة، وكلمة "سلفادور". فارتُ فراشي. فتحتُ النافذة حذراً، بلاطات الطريق حجرية وجزء من الرصيف المقابل. مرقت عربة جيب بسرعة، يقف إلى جانب السائق شاب يرتدي ملابس شبه عسكرية، يلوح بيده مهدداً.

ما بين استيقاظي ورؤيتها أربع ساعات وعشرون دقيقة.

بعد وصولي إلى القاعة وبدء إصغائي إلى الترجمة الفورية لحديث كاتب فنزويلي رصدتُ حواسي حضورها، عطرها تفاد. يمت إلى عبير أم فريدة القديم المتشح بالعصاري، رائحة مصدرها الكينونة، الملامح، طريقة الحديث، سبيل الائمة، ليس الشعر وحده، ما بين الإبطين، أو الفخذين، ليست المسام أو امتصاص الملابس الداخلية لما يصدر عن الجسد مرمي التكوين.

تطلعتُ متجاسراً. خارج ديارى أصير إلى جراءة أشد. الحياء أمر جُبلتُ عليه وكان له عندي آثار شتى ربما أفيضُ في وصفها يوماً، لكنني عند السفر أقدم على الفور، بل أسعى وأختلق الفرص. ربما لخروج عن دائرة موطرة. وأعراف غير مرئية، وأمور فاعلة لفتتها منذ صغري واستقرت عندي، تؤثر في محيطها الأول.

حدقت لأستوعب.

قعدتها مهروية. لدماعها تنمخة، ولنظراتها زهوة المقدمة. تعلن عن مواجهة لا تنتهي مع مجهول لا أراه. صريحة الطلاوة.

تجاوزت المنصة والترجمة الفورية والحاضرين من أقطار شتى. صرت إليها، وعندما تلقت قدراً غير يسير مني التفتت فلم أنسحب، أودعت خلاصتي في نظراتي، توقى وسائر نزوعي، وحينني المتصل إلى التمام، ابتسمت فجاءتني، وَقَعَ الاتفاق، أيقنت، تأهبت فالمقام عابر والوقت المتاح قصير، في مثل هذه الأحوال يصير الزمن إلى إيقاع آخر وتقييم مغاير، هذا أمر خيرته. ما إن ارتفع تصفيق الحاضرين حتى أشهرت آلة التصوير. مستأذناً. أشارت :

"ليس هنا .. ليس هنا .."

في الطريق إلى خارج القاعة، قالت إنها أصغت باهتمام إلى ما تحدثت عنه مساء أمس، إنها طالبة دراسات عليا والتاريخ تخصصها، أصغت مبدئاً التجارب وذبول يدركني لذلك التماثل العجيب بين الجسدين الأشمين رغم الفارق والمدة، وقت تطلعي عبر النافذة الموصدة وتشيعي شواظ شوقي إلى أم فريدة، لم تكن "أديانا" هذه ولدت بعد، لكنها تحوي ذات القدرة على تطبيق اللهب الأوار عندي.

قالت إن هذا المبنى قديم. كان مقراً لإقامة الرهبان في القرن السادس عشر. في القرن الماضي تحول إلى سجن لفترة من الزمن ثم هُجر وتهدمت بعض أجزائه، واستخدمه البعض مخزناً لقصب السكر، لكن في السنوات الأخيرة تم ترميمه وتجهيزه، وتحول إلى مركز ثقافي.

لم يغب عني حرفٌ مما نطقت به، لكن داخلني كان يتمرجل، بدت صاحبها صامتة، لا أحفظ بأي ملمح منها، لكنني أذكر توقفها عند بداية ممر طويل تخفه أقواس مودية إلى غرف صغيرة معتمة. قالت بضع كلمات بالأسبانية، أو مأت ثم انصرفت، انفردنا.

تقدمتني إلى سلم حجري، حلزوني. ضاق الحيز فقوي علي عطرها، نفاذ، صمغي، سكري، خطوط واستدارات أم فريدة، أنشبت نظراتي في تأود

ردفيها. وتموج نسيمها. انتهينا إلى سطح مرتفع عن سائر البيوت المحيطة، مبلط بالحجر، كاشف غير مكشوف، بالنسبة لي تركز العالم كله في الحيز الضام لنا، راحت تشير إلى هنا، وإلى هناك، لكنها كانت تقيم عرضاً وترسخ عهداً، استدارت فجأة..

واجهتني باكتمالها، بالحواس المستنفرة. ضاقت عيناها، صار الخطاب بالضمت.

" أفهمك.. وأعرف "

شيئاً فشيئاً أصبح لها ولي مكان وزمان لا تنطبق عليهما القوانين المنظمة لدورات الأفلاك، ليس مهماً أنني في مصر أو المكسيك، في الجمالية أو موريليا، تحت الأرض أو فوقها، غابت ملامح القوم الذين نزلت بينهم. اسم الفندق القديم، والعربة الواقفة بلا خيول أو ركاب.

كم استغرق تخديق كل منا إلى الآن ؟

لا يمكن التحديد، كان عليّ مواجهة اقتحامها المستمر، عيناها مركز، بقدر ما تبث من جرأة، بقدر ما تفيض بالشجن، لم تقل حرفاً، كأن الكلمات ترتد إلى داخلها بتأثير جذب هائل لا يمكن مقاومته.

تراجعت برأسها مبرزة صدرها النافر المستنفر. كأنها على وشك الخطوة الأولى في مشروع تعيد به الأمور إلى أصولها، المواد إلى عناصرها الأولى، تقدمت خطوة.. دفعتني في صدري.

قوية، أودعت عندي أثراً، بقدر ما فيها من حدّ، بقدر ما تحوي من استفسار وحضّ ودعوة، ظاهرها الهجوم وفجوها التلبية، تراجع.. تقدمت هي، دفعتني مرة أخرى. مرة ثالثة. إما الردّ أو التواري، غير أنني كنت أصغي

إلى ذلك الشواظ القديم والذي ظننتُ انطفاءه إلى الأبد، كان يشتدّ مستديعاً كل لحظات النوق التي مرت بي.

أشهرت إصبعي، دفعت به إلى صدرها، آهة ألهها، توجّع هذا أم لذة؟ شدت شعري. أمسكتُ بمعصمها. ثنيتُ، دارت مضطرة منحنية لتسلمني بتكوينها إلى الدهول الأتمّ والهديان البعيد. اضطرم اللهب الذي دفعني إلى الفراغ ذلك العصرَ البعيدَ وكان حذاءً أنهى طلاتي على جارتي الفيضة، لم أعبأ بشيء، البعد يشجعني. وقصر الوقت المتاح يدفعني، ودفعها يحيلني إلى عناصري الأولى، أما عتاقة المكان فتضفي قدراً من الإقدام والغواية لم أعرفهما من قبل.

مدوية عاصفتها، تسعى إلى الاتحاد بالانفصال، تبغي الامتزاج بالتنافر، المتني أظافرها وأوحيني خدشها، لكنها لم تقدر على التخلص من الوضع الذي دفعتها إليه، وعندما أسفر حسدها عن جنيّة، رأيت ما تدليت من أجله يوماً، هكذا جرى انبثاتي عن سائر لحظاتي. تركّز حضوري كله منذ تخلفي جنيّاً إلى تلك اللحظة إلى ما لم أعرفه بعد، تركّز في دفعي مداري للاتحاد بمداري. في اكتمال تكوكبي بها، وتطلعي إلى اتساقها، وحلاوة مصادرها. تضامت سائر المسافات، واقترنت الجهات واللحظات الماضية بالآنية وأصغيت إلى أصوات قادمة من بعيد كانت واهية من قبل. ونفذتُ إلى أسرار لغات شتى بدون ترجمان، ألغيت تحفظاتي كلها. وبددت محاذيري كافة، صارت مقصدي وعطرها هويتي، وصبرختها عند بلوغ أوج متعتها ذروة تحقيقي، شقت الفراغ الضامّ لبيوت المدينة وسرت إلى الجبال القريبة. وإلى أيامي الأولى، تلك العصري. عندئذ أفلّت من كل مدار. صرت إلى خلق آخر..

بلوغ الأسباب..

يبدأ سعيي حين أظن وصولي إلى نهاية مطاقي، عندما أشارف اليقين
باكتمال الخطى تبدأ الرحلة غير المتوقعة في سياق الظن. بعد اجتياز الخمسين
صرتُ أتعلق بالعصاري ومتعارف الغروب، حلت بي رؤية وداعية، فكم من
كتب أنظر إليها مستقرة فوق أرفف مكتبي، أعرف أنني لن أطلع عليها، ما
يعير بدائرة بصري أفتفيه، كأنه نهاية ما ألتقاه من صور.

يختلف الوضع عما كنت عليه أول زميني، عندما كان الحال الغالب عليّ
شروقياً، آمالي متوالية وتطلعاتي مسفرة، لكم حلمت وتمنيت الرحيل، وعندما
بدأت أسفاري صرت أشرق وأغرب خلالها، إذا وصلتُ أفقاً مددتُ البصر إلى
ما وراءه، وإذا بلغت مرسى تهيأتُ للحظة إقلاعي منه. ثم بدأ توقعي لإقلاع
غامض. مجهول الغاية، لا يسمح الجبال بتقصي الأحوال. إنها بلا حصر. لكنني
أقول إن أمري أصبح كائياً، غامقاً.

ذكرتُ في تدوين سابق هيامي بالموسيقى التركية. والغناء الشجي لأهل
تلك الديار، تجذ المقامات سبلها إلى روحي فتثير وتُقلب، إلّا أن المعاني في
تجريداتها المنطوقة كانت تستقر عندي.

حدث بعد رحلي التي أشرقتُ عليّ فيها منبع اللونين، الأصفر والأزرق،
التي طلعتُ عليّ في جبرين وجري لي بسببها ما جرى. حدث أن أهداني
صاحب حميم شريطاً لحفل موسيقي بعد عودته من "قونية" وزيارته ضريح
مولانا جلال الدين.

جوق من رجال ونساء، يقفون في صفوف ثلاثة متتالية، غازفون يجلسون
إلى آلات أعرف بعضها وأجهل الآخر. قائد الفريق عجوز، مهيب، أشيب

الشعر، يشير بيديه مباشرة. بما يعني كثيراً متابعة الصلة بين أصابعه ومسارات النغم.

تستعرض آلة التصوير الملامح على مهل، أصابع العازفين، جمهور المستمعين، ما أجمل أن أسمع وأرى وأدقق، ما هذا؟

هي ..

باختصار دال، مكثف .. هي.

آلة التصوير لا تتوقف عندها، إنما تتمهل أمامها، تمتشق الهيبة، لوقفتها شمخة تترج بنعومة فيضها الأنوثي، انضباط قوامها، شروع ملاحها، بجمع لأمكنة عرفتها، ولحظات مررت بها، ونواصي حنين توقفت عندها، وأزهار لا يمكن نسبتها إلى فصيل. حارية، متناهية، مفرداتها مقتطفة من سائر توججات الجمال، وتدرجات الجلال.

صرت إليها موقناً إن وضعي تقلقل. ذلك أن ما تعلقت به صورة، علامة على وجود، وليس الوجود عينه، أعدت الكرة مراراً. أوقفت الشريط عندها. أبطأت دورانه. أسرعته منه، اقترب، أبتعد إلى الخلف، أتوقف عند مسافات مختلفة، أما النغم الذي تشارك في إنشائه فامتزج بي، لا أقول حفظته، إنما انتهى إليّ، صار يصدر عني، أتقلب على مقاماته، وأخطو على ايقاعاته. أنام وأصحو على إنشاده، أقوم في أوقات مختلفة من الليل. لأدير الشريط.

من ؟

أين الآن .. بالضبط في هذه اللحظة ؟

ماذا تفعل ؟

لا أعرف عنها إلا صورتها ضمن المجموع. حضورها الذي استعدته مرات،
كتمت أمري عن صحي الأقربين لغرابته، إلى أن بلغت الحد الباعث، المحفز،
ذلك أنني قررت أن أبلغها.. يكفي ما ضيعت، هذه الإخفاقات المتتالية التي
تنقلني.

لكن .. كيف ؟

كيف وأنا لا أعرف اسمها. ولا عنوانها. ولا لسانها. محيطات أكيدة. إلا
أن ما بدأ عندي أقوى. أمضيت جل عمري في التعلق بخيالات شتى وأنفقت في
استدعاء الصور وتمثل الرؤى أكثر من اتصالي بالمحسوس ودرايتي به، الوقت
المتاح بالتأكيد أقصر من المفقود. إذن.. فلا شرع. أن أعبر الموانع أيا كانت،
ربما أجمع بعضاً مما تدرى مني، أن أعيش تلك الوثبة بعد توهمي عجزني عنها
وكلالي، وبقدر ما يعصف بداخلي من هوجات بقدر ما بديت لكل ذي قربي
هادئاً. راسخاً. ثابت الظل بعد تباطؤ خطوي، وطول إطرقي، وشدة إمعاني.
بتأنٍ رحتُ أنهي بعض العلائق وأجد أخرى، وأصفي ما أقدر عليه، فلبتُ
كافة الممكنات التي لا تساعدني على السفر إلى استانبول مرة أخرى، أقصر
الإقامة فيها مستوراً، آمناً حتى أصل إليها ويخاطب لسانها لساني.

لعلي أبلغ الأسباب.

طرقتُ الأبواب كافة، طلبتُ المساعدة من أصحاب قدامى لدى بعضهم
صلوات بمنشآت ذات علاقة بتركيا. لكنني لم أصل إلى شيء، إلى أن تلقيت
جواباً على رسالة كتبته إلى عزيز عرفته زمن الستينيات في منتديات القاهرة
الثقافية. خاصة في الطابق الخامس من البناية رقم سبعة وعشرين بشارع عبد
الخالق تروت. والتي كان الراحل يحيى حقي يتخذ من إحدى غرفها مكتباً
يلتقي فيه تلميذه وصحبه. يُصغي إليهم ويُبدى حنواً ورعاية لمن هم في البداية،
بصبر وطول بال وقدرة على توصيل الفائدة بغير تقتير.

في مكتبه لقيت "أكمل أوغلو"، توثقت علاقتي به، إلى أن رحل من مصر إلى بلد أجداده، وأنه انتهى إلى إدارة مركز علمي للدراسات والفنون الإسلامية، وجرت بيني وبينه مراسلات على مدد متباعدة، وكان ممن طرقت عتباتهم.

أبدى ترحيباً، دعاني إلى القُدوم. أما الحديث عن أي أمور أخرى فمؤجل حتى اللقاء، هكذا أقلعت صوبها، وعندما رحب "أكمل" بي، وصحبني إلى مطعم يطل على البوسفور. منه يمكن رؤية مدخل مسجد رقيق التكوين، منمنم المواشي، حزين الحضور، ينبعث منه صوت مؤذن مُلتاع، مُصوب مباشرة إلى سائر الفضاءات العُلى.

لم أخف عن صاحبي أمري. بسطته مباشرة، قلت إنني خرجتُ من موطن أهلي. وموطن صحي. وجدتُ عن تراث أيامي بسبب صورة لشابة أجهلها. غير أنني عاقد عزمي على الوصول إليها، وليس قدومي إلا الخطوة الأولى تجاهها. لم أصحب في حقيبي إلا بعضاً مما يستر أيامي الأول، ومن مكثبي التي أنفقت جوهر عمري ومالي في جمعها، صحبت أربعة كتب لاغير اعتدت أن تكون معي أينما توجهت . القرآن الكريم، وألف ليلة وليلة، وديوان الحماسة لأبي تمام. ونهج البلاغة لسيدنا ومولانا علي ابن أبي طالب. هذا حسبي.

لا أعرف ماذا يمكن أن يقع لي غداً، غير أنني مقدم، باذل للجهد، غير وجل لعلني أحد فيها منتهاي، إذا وَفَّقْتُ أكون بلغتُ وتحققتُ، إذا تعثرتُ يكفيني الإقدام وتجنبي ما عرفته من ندم.

تعجب صاحبي غير أنه تعاطف وتفهم، قال: لا يغير مصير إنسانٍ إلا امرأته لكنك تتبع صورة.

قلت : إنما أخرجُ مني إليّ.

قال مبتسماً : ها أنت بعد بلوغك الخمسين يمكن أن تصير تركياً !
ارتعدت. كأنني أدرك ذلك للمرة الأولى، كدت أنطلق بالنفي الموثق، المؤكد،
لكنني صهتُ، لم أقل : إنّ دَارَ مولدها وإقامتها لا تعينني، ليست القصد، إنما
أسعى إليها لو هي هنا أو هناك، صينية، هندية، روسية، إفريقية، كردية،
حركسية. كردية أو من بنات المايا، شرقية أو غربية، جنوبية أو فوقية، تحتية،
أرضية، أثرية، قديمة أو.. محدثة، ما يعينني "هي". الصورة تمت إلى زمي، إلى
وقت يحتوينا معاً، في كوكب يرحل بنا عبر الجرة، كيف لا أسعى وهي جارتي
في الوقت أما المكان فحيث أخطو.. كيف ؟ كأن صاحبي أدرك عني. أطرق ثم
اقترح عليّ الالتحاق بعمل مؤقت يحتاجني فيه، ويكون نواة مركزي، يتمثل في
إشرافي على الطبعة العربية من النشرة الشهرية التي يصدرها المركز.

لم يكن أمامي خيار، كنت أسعى هادئاً، ثابت الخطى كأنني ولدت
ودرجت وعشتُ هنا، لا أسفر عن أي اغتراب، إلا أن لبَّ جِذعي كان قلقاً،
فعالاً.

رتبتُ لحضور دروس عملية لإتقان اللغة، أقيمتُ في فندق صغير يقع عند
نهاية طريق منحدر، رتب لي "حقي بك" اتفاقاً ميسوراً مع صاحبه، ويومياً
نمضي معاً إلى المدينة العتيقة الرمادية الطلع. غروبية الملتقى.

يعيش حقي بك في هذا المنزل منذ عشرين سنة. تجاوز الثمانين. خبير بفن
الخط، وله أعمال في المتحف والمعارض ذاع صيتها، يشرف على صيانة المخطوط
المنقوشة في حجر القباب والمداخل والخنيات وحول حضور المآذن. مُلمّ
بمخطوطات مكتبة السلিমانيّة، هدفه.. إيجاد مخطوط قديم لثانية ابن الفارض
بخطه، يحفظها، يرددها بالعربية الفصحى الناصعة المشوبة بلكنة أعجمية، يعرف

المدينة القديمة كما أعرف الجمالية. له عند كل ناصية وقفة، وأمام كل مدخل قديم شرح، وتحت كل قبة تأمل. وأمام لوحات الخط هياج وتطريب.

هُوَ من دليني على مقهى "على باشا مدرسة" الذي صار بؤرة وجودي، ومنطقي، يومياً أجيئ إليه، أعبر الممر الطويل، على جانبيه شواهد رخامية، ينتهي بعضها بعمايم. منها الكبير والصغير، وشواهد خالصة، أخرني حقي بك أنها لنساء صالحات، مزرعة حجرية للموت، نصب حاضة على التذكر لدرويش وخدام طريقة ومن بلغوا من التجربة عتياً.

تظلل الممر المعتق تكعية عنب، يتموج الفراغ بعبير الريشان ونعناع وليمون، ينتهي الممر إلى فناء فسيح، فراغ منظم، مؤطر، في نهايته مدخل القبة الأصلي، المرتفعة، تحوى الجزء المغطى من المقهى، في الوسط حديقة ينبت منها صبار وشجرة تين، على الجانبين عنب يتدلى، يشرف على متاجر تعرض أبسطة ملونة، ربما كانت مقاراً وخلاوي للصوفية زمناً، أستسلم لنقاطع الوحدات الزخرفية وتماثلها وتفرقها، تمتاز برائحة التبنك. سلوتي ومونس انقطاعي عن المواقيت.

قامت بيني وبين عمال المقهى وبعض رواده صلة. عرفت الأسماء والألقاب، ومواعيد الثوبات، حدثني أحدهم عن صاحبة المكان المشلولة، ورثته عن أمها، تعيش الآن وحيدة قرب مقام سيدي أيوب الأنصاري، لاعقب لها لكن.. من يدري، ربما يظهر أقارب في اللحظة الأخيرة.

أبدى حقي بك دهشته لارتباطي بالمكان ومعرفتي الدروب النافذة إلى ما يحيطه، خاصة السوق المغطى، لم أطلع على زيارتي القديمة، وانفجار البهاء الأثنوي، أزرق، أصفر، وشروعي في المكث لولا نقص الهمة، لم أخيره بظهورها في حصن بعيد، غريب، كدت أهلك فيه، بل إنني لم أستعد لحظة ظهورها، وحدوث دهشتي وروعي. مررت بالموضع عينه، لم أتوقف عنده، استعدت

ما جرى وطيفُ سحريةٍ يخلقُ عندي. هنا اتكأتُ وهُرِعتُ دقاتُ قلبي في إثر بعضها، مالي منبتٌ مقطوعٌ عما جرى. عن اللحظة والوضع، لو قرأتُ عن مثيلٍ لما مرَّ بي ربما تأثرتُ به أكثر، أحقاً جئت هنا من قبل؟ أحقاً نفس المكان؟. ما المكان إذن.. إذا لم يحدث مثولي به عين الأثر؟ عللت بهتي وانصرافي بحالي وشدة توقّي، لكن.. ألن يلقى هيامي هذا عين المصير؟

أنفض الخواطر عني، مالي أسبق الوقت؟، لماذا أسترّجع سيرتي الأولى، مغادرٌ دائماً للحظة الآتية، أستعيدها بعد زوالها، أو أتخيلها قبل وقوعها، يتنافى ذلك مع مشروعي.

أصغي صابراً إلى حقي بك، يحدثني عن أولاده الموزعين على أنحاء الدنيا، أحدهم صاحبُ مطعم في أرنجن بألمانيا، وآخر في جامعة إنديانا بالولايات المتحدة، وثالث في السلك الدبلوماسي بقنصلية بلاده بجدة، وابنة تعمل في مؤسسة تعنى بالمخطوطات الفارسية، والتركية والعربية في فرانكفورت. لم يتصور اقترانه بزوجة أخرى. يردد عند ذكر امرأته :

"كانت تريحني .. كانت تريحني جداً .. "

نطقه بالإنجليزية مشابهٌ لإيقاع كاتب مسرحي شهير عرفته، بعد رحيل زوجته ردد على مسمعي نفس الألفاظ - لكن بالعربية - وعندما أصغيت إلى حقي بك كأنني أسمع الآخر بلغة مغايرة !

يبدو متحمساً، متدفقاً، فسيح الخطى، لكنه يصمت أحياناً، تتوارى لمعة عينيه، ينسحب بعيداً رغم حضوره في مواجهتي، وقد يتطلع إليّ بكراهية، كان ما يعني اختيار الوقت لأبدأ استفساراتي، كنت أحفظ المعلومات التي ظهرت كمقدمة للشريط وخاتمة، تاريخ التسجيل ومكانه واسم قائد الفرقة، فرق الموسيقى الكلاسيكية متنوعة، أشهرها التي يقودها الدكتور "نفزاد" صديق

"أكمل أوغلو"، جاءت إلى مصر. وأصغيتُ إليها في قاعة سيد درويش. جرى ذلك سنة تسعة وستين.

أصغى حقي بك، لمس كتفي بودّ، قال إنه سيخبرني غداً، لكنه في الموعد الذي حدّده لم يجلس، إنما بقيَ مائلاً، قال بلهجة أمّرة، واثقة، وصوت مثقل بوقار قديم :

"قم !"

تساءلت بالنظر ، كرر :

"قم !"

أجبتُه مستفسراً :

"إلى أين ؟"

قال بثقة :

"إلى مبتغاك ."

مضيتُ خلفه إلى الميدان الفسيح. ما بين كنيسة "آيا صوفيا" ومسجد السلطان أحمد. ما بين العمارتين المتواجهتين، المتناقضتين، فراغ يضحج بالصراع والتماثل، اختلاف وتشابه، قباب آيا صوفيا المتساندة، الصاعدة، أصل لسائر القباب العثمانية، وما بينهما وقفت.

صباحٌ "صحو"، والساعة تمام العاشرة، ومياه البوسفور قريبة، والبصر يطالع الماضي في الحاضر، هنا يتم ذلك التماذج فينوء الفراغ بذلك الشجن الرماديّ، لم أعرف مكاناً مائلاً إلا ميدان الرميّة، ما بين قلعة الجبل، ومسجد السلطان

حسن، مُضَيِّقُ الوقت على العمارة يضغى عليها ما يُخاطب الحواس مباشرة،
أدركت ذلك بعد طول سعي.

إلى حوارى حقي بك. وقوم من جنسيات شتى. يتطلعون إلى الفرقة
المصطفة فوق مسرح مكشوف، العازفون يجربون آلاتهم. كان ترقِّي مغايراً،
ولم أكن متسرعاً، بدأت بالنظر إلى الرجال، إلى العازفين، إنما أردت تأجيل
البحث خشية وقوع الخيبة.

أعرف بعض الملامح..

عازف الطنبور.

رأيتُه، أيضاً.. العود. ضابط الإيقاع، الكمان..

هذا كله مجرد تمهيد. مطلع يفضى إليها. مواز لآيامي وشهوري وسنيّ،
لشوقي وحسيني وألمي واتباعي وصبري وطول انتظاري قرب الاعتبار الفاصلة،
هكذا.. بدا ما بيني وبينها قريباً، قصياً في الوقت عينه.

هي ...

هي ...

ما بين وقوع بصري على صورتها ورؤيتي حضورها ثلاثة شهور وأربعة أيام
وسنة عشر ساعة، خلال المدة تغير حالي. وحاد مصيري..

ها هي ..

لا يعرف أيّ من الواقفين، المصغين، العازفين، المنشدين، الشاخصين،
المترقبين ما تعنيه وقفيّ. ما يدل عليه شخصي إليها، تعلقي بجمالها الصريح،
بانثاقها الأشم.

ما بين وقوع بصري على حضورها، ونطقي أول لفظ المخاطبة، متجها إلى سمعها مباشرة بدون وسيط ساعتين إلا خمساً وعشرين دقيقة، واحتمت بهاها بوجل، ودخلت دائرة سناها برهبة، إني لمدرِك أهمية النظرة الأولى، لشماس حوافنا غير المنظورة. أعرف أن المصائر تنقرر في البداية، وأن الصد أو القبول له بزوغ عند بدء التماس، أودعت ملاحي كافة ما أقدر على إبلاغه، الخطورة الأولى تحوي المضمون. وما يليها تفصيل، لم أكن في حاجة إلى التدقيق، فما مررت به يوهلي للحضرة.

لم أبدل في القول. ولم أعبأ بأي رقيب. لم أدع خلاف ما جرى، ولم أذكر ما هو غير حقيقي، صرتُ صريحا كالخليب لحظة ابتثاقه من الضرع. أفضيتُ بداية أمري، وقوع بصري على صورتها الناطقة، تقلقل حالي. ورحيلي في طلبها، أصغت بدهشة بكر وانفراجة شفتين رقيقتين كادت تذهلني. كأنها لا تصدق ما تصغي إليه ولكنها ترغب في الاقتناع.

الصد أو إبداء السحرية كاف لمقتلي، غير أنها أبدت ما لم أتوقعه، ابتسمت برقة، وقالت إنها مسرورة لسماع ذلك وإن كانت لم تسمع بمثله ولم تقرأ، توقفتُ لحيلة، لمستُ صدرها بطرف أصبعها..

"جئت من أجلي؟"

أجاب حقي بك عني:

"صدقني.."

ارتحتُ لتدخله الحميم، إذ خشيتُ غضبه لإخفاثي التفاصيل عنه، لكنه بدا متعاطفاً، متأثراً، قالت إنها تدعونا معاً إلى حفل محدود مساءً بعد الغد، ستعني منفردة، التفتت إلى سيدة عجوز، أصغيتُ إلى إيقاع اللغة، وتمكنتُ من مشهد ملاحي الجانبين وانبعث داخلي أنينُ ناي عتيق. أقلعت إليها غير أنها لم تعاد

النظر إليّ. كأنني لا أدخل في مجال بصرها، وعندما بدأتُ تبعد لم أتحرك. ظللتُ ممسكاً ببطاقة صغيرة موضعاً عليها عنوانُ المكان، كنتُ قدّمتُ إليها قلماً لا يفارقي، مداده أخضر، أدون به الملاحظات والخواطر، خطّطُ به الكلمات الدالة ثم أعادته إليّ. قبضت عليه من حيث تناولته ليقع اشتراكُ حسيّ بيننا في ملامسة غرض واحد.

هذا خطها إذن !

أين حقي بك ؟

أين ذهب ؟

تلقتُ، مضيتُ هنا وهناك، لم أجده وداخلني يقينٌ محيرٌ أنني لن ألقاه مرة أخرى، مشيتُ موزعاً بينها وبينه، طلّتها. ظهورُ الهادئ. وقفها الشماء، الحنين الذي يفيض منه عندما يتحدث عن أولاده المتفرقين بعيداً..

حقاً له أبناء ؟

لم يطلعني على صورة أحدهم، من يدري ؟

عبرتُ كوبري جلطة، آويت إلى مقهى تحته، مطل على مياه القرن الذهبي مباشرة، رائحة التتباك، ورنجيات يلتفت حولها شباب قادم من أوروبا، يتبادلون التدخين، والاكتشاف، عندما بدأت أنفث الدخان تطلعوا إلى الحنكة والتجريب، ابتسمتُ إحداهن، بدا فضولهم، تطفلهم، غير أنني لم أبادلهم إشارة، كنتُ ساعياً إلى الوحدة لأستعيد ماجرى، لأعيشه من جديد، لأرى ما لم أشهدته لحظة وقوعه، كثير مما يمر بي أو أعبره لا أكتشف أبعاده إلا بعد انقضائه. بعد بلوعي لحظات حاسمة يتحقق فيها المرام كنتُ أقيم حفلاً لا يحضره سواي، أجلس منزوياً في مقهى، في حديقة، في موقع مطل على النيل. أنفرد بما جرى،

بلحظات التلقي وثمام الاتفاق. تلك لحظات يطول الحديث عنها لذلك سأفرد لها وأفويض لكن في غير ذلك التدوين.

مضيت أستحضرها. أتمثل سموها، وانتشارها، غير نادم على شدة سعبي كنت أخشى ديب فتوري الذي يبدأ مع قرب التحقق، واجهتُ سرورة صفصافية، لحضورها لونٌ أخضرٌ زاهٍ. لها ما قبل بزوغ الشمس مباشرة. أيضاً.. ما بعد مغيبها، كذا.. لحظة اكتمال الفكرة. بدأ سعبي آخر..

اقتفيتُ حفلات الفرقة، والأمسيات التي تخيبتها بمفردها، ليس في استانبول فقط، إنما في أزمر، وبورصة، وأنطاليا، وأنقرة، وقونية حيث مرقد مولانا جلال الدين الرومي. أصبحتُ جزءاً من فريقها وإن كنتُ منفصلاً. صار أمري معروفاً لرفاقها، جرى بيني وبينهم لفظ مسموع ومرئي، عند فتح الستار أو إسداله.

أثناء عودتنا من قونية، بعد وقوع بصري على حضورها بثلاثة وثلاثين يوماً تبعثها خالها أينما ولت وجهها. دعوتها ولبت. مضيتُ إلى المقهى مبكراً، ساعة قبل الموعد حتى يمكنني التأهب والتمكن، أتمثل ظهورها، توقفها، بخنثها عني، ألتزم يدها، أدعوها إلى هذا الركن المتين الذي اعتدتُ الكمون فيه، استدعي الرجل ذو الشارب الكثيف، كردي من ديار بكر، يبادلني وداءً، يتحدث بالإنجليزية متعرة وبإشارات منطلقة، يطيل وقوفه أثناء تغييره الجمرات المشتعلة، يبدو مبتهجاً لظهورها إلى حوار، لم يرني من قبل إلا وحيداً، أو.. بصحبة حقي بك، آه.. أين ذهب، ولماذا اختفى حتى من الفندق مقر إقامته. بعد انصراف الكردي. بعد أن رشفتُ الليمون الحامض الساخن. قالت :

"ماذا تريد مني ؟ "

نفس الإيقاع، نفس التساؤل الحاضّ الممهد للقبول، سمعته منذ عشرين سنة،
عندما بادرني محبوبة ارتبطتُ بها زمناً.. المكان كان هناك، علي ضفة
النيل في القاهرة. قرب شجرة حمير قديمة، راسخة، تطلعتُ إليها. تماماً كما بدا
رد فعلي من قبل.

" أنت .. "

لبيت طلبها، قصصتُ عليها كافة ما مرّ بي منذ رؤيتي صورتها، كانت
تضوي بألقٍ داخلي أثناء إصغائها، وتعبير ثابت يصعب توصيفه، قالت فجأة :
" أين تذهب بعد لقائنا .. "

أبرزت بطاقة الفندق حيث أمضي الليالي منفرداً، مقطوعاً. حسم دال
" اتبعني .. "

إلى جوارها، دائماً في المقعد عينه. أنظم في مدارها. لها أريج البوادي،
وعبق النواصي القديمة، قالت إنها متجهة إلى الجانب الآسيوي، صاحبة عزيزة
تمتلك بيتاً من طابقين. على مقربة من حديقة فسيحة يتوسطها قصر جميل يطل
على البوسفور. بناه الخديوي إسماعيل تم أهدها إلى الخليفة العثماني.

ضمة شفتيها عند نطقها حروفاً معينة، ميل رأسها في وضع التساؤل أمر
يُلحق بي ذهولاً ويسبب محنة، طُلّتها الجانبية تدهلني، ذلك البهاء الحاري
للدلال والاستنفار وكبرياء، مس طفولي يمتزج بشذا أنوثتها.

حدثتها عن صاحبي "أكمل أوغلو"، عن عملي في المركز الذي كفل بقائي
من أجلها، عن حقي بك واختفائه الخير، قلت إن الغربة لم ترهقني لأنني أعيشها
دائماً. وأقصى غربة ما كانت في الوطن، حدثتها عن دخيلتي عندما لبث
مورعدي. ثنيتُ لو أوقف كل من أعرفه أو يقع في دائرة بصري لأخبره بالنبا

العظيم، أن أفيض على الآخرين، أن أحقق بعضاً مما سعت إليه، استرداد حيوية الدفقة والبهجة، في زمني الأول كنت قادراً على استحضارها بالقليل من الجهد واليسير من الزاد، مطلع أغنية، انخاء نغم، هبوب نسيم، تحرك غصين، ملامح مجهولة عابرة. عطفة مؤدية، أما الآن فلا بد من تغيير أشد لتحقيق الانطلاقة، لا بد من مفارقة ديار وعبور بَوادٍ.

قلتُ إنني عانيت الغروب في استانبول، تتوحد عتاقة المدينة باختفاء الشمس، فتبدو اللحظة قاسية، ثقيلة الوطأة، قلتُ إنني لم اصغ إلى صوت يفيض بالشجن مثل الأذان الذي أستمع إليه فجراً، قلتُ إنني جئت من قبل، ورأيت منها ما أثارني في حينه، لم أخبر عن الإشراقة المفاجئة، مرسلّة الأزرق والأصفر وافتقادي الجذوة عند مروري بالمكان عينه. المكان.. ما المكان؟ قديماً كنتُ أردد ما يعني ثبات الموضع وتغير الوقت، لكنني أدرك متأخراً أن المكان بزمانه، المحل بوقته، بما يحويه، فإذا انقضى الحال ذوى المكان أيضاً، حتى وإن وطئته نفس الأقدام، واحتوته النظرات عينها !

تنجّه إليّ بينما العريّة تستدير عند نهاية طريق منح.. أعرف هذا الوضع، عندما تريد الأنتى حسماً، أن تبوح صمتاً، عيناها، ملامحها، تحويان من الحسّ والأمر والرغبة والرجاء ما لا يمكن للمنطوق أن يبلغ به، ولأنها مقصدي فقد تهيأت. وكنت أنقل الطرف ما بين لحظتين.

وقوع بصري عليها لأول مرة والنغم المنبعث من الفرقة الشادية.

دنوها مني الآن ورائحتها النضرة.

ما بينهما سعي.

قالت إنها اعتادت أن تمضي وقتاً بمفردها في شقة صغيرة يمتلكها صديق زميلها. شاذ جنسياً، تقضي الوقت للتأمل، وقد يمر يومان أو ثلاثة بدون خروج، بدون أن ترى الشارع.

مشيتُ.. ليس إلى جوارها. إنما أتبعها. تأخرتُ نصف خطوة، حتى أتمكن من استيعاب فرائدها، وامتدادها. وشبوبها. كنت مواجهها بحجرة أنثوية، ينتظم غيرها كل ما أرغبه. لكن حيرتني إشارتها إلى زميلها. لماذا قالت إنه لوطي؟

لم نبتعد عن العربة كثيراً، نتجه إلى البيت. ربما عمت إلى القرن التاسع عشر، نوافذ مستطيلة خشبية، نقوش محفورة في الجص البارز فوق الشرفات. تذكرت ميدان العتبة، فندق البرلمان، مبنى البريد، مبنى صندوق الدين، متجر صيدناوى. هذا الفراغ المصاحب لحضور القَدَم..

تقدمني. دهليز طويل. رائحة غامضة، رطوبة، أصدااء بعيدة للحظات صعبٌ تحديقها وموادٌ يصعبُ تعيينها، فناء داخلي يطل عليه أربعة أبواب، تقدمتُ إلى الباب المواحه للمدخل. صعدتُ متمهلة، شعرها في لون الحناء، تماماً كما رأيته أول مرة عبر صورتها.

لماذا أعلنتُ شذوذ صاحب المكان؟. حيرني ذلك، يتناهي الارتباك والقلق الغامض إذا حضر شاذ، عندما فتحت الباب انبعثتُ رائحةٌ مُبِيد قوي.

استدعتُ إلى ذهني رائحة ماثلة مرتبطة بتابوت خشبي مفتوح عند مدخل بيتنا القديم، في انتظار جثمان والد جارنا. كان شيخاً عجوزاً، بارز الحنجرة، نحيلاً.

صالة ضيقة، حجرة واحدة في المواجهة. مرتفعة السقف. تطل مباشرة على الفناء الذي عبرناه، مكان قصي، معزول، كيف أعود إلى الفندق إذا غادرتُ منفرداً؟، أين ما أتواجد فيه عندما كنت طفلاً في الجمالية؟ هل خطر ببالي بلوغه؟. كان مخفياً في تلك اللحظة التي بلغتها بعد طول جهد وخفق قلب.

تقف إلى حواري، ألفتُ إليها، تتلاقى نظراتنا، ها هي مقبلة، مبادرة، لا
تلتقي شفا هنا بل تمتزجُ ببعضها، تجوس يداي على ذراعيها، كتفيها، ظهرها،
تحف بنهديها النافرين. يجرد كل منا الآخر. وعندما اكتمل بهاء غُربها تراجعتُ
خطوة لأحتويها بالبصر.

سامقة، فارهة، متينة العمارة، بهية التقاسيم. نادرة الإيقاعات، تستلقي
متهيئة، تشير بيدها إلى حقيبتها الصغيرة. أفتحها.. عوازل طيبة، لا يمكنني تقدير
العدد حتى الآن. أغلفة فضية، كتابة باليابانية. تقوي رائحة المكان. ذلك
المبيد.. يبدأ حطلي.

تشير أن أقرب إذ رصدت بعضاً من تأخري، تتحسس جسدي. تلم
عنقي، صدري، تسعى كلها نحوي.. أتطلع إليها، إلى الفراش، إلى الحقيبة. إلى
سجادة قديمة. إلى طرقها المودية.

أمن أحلها فارقتُ وحِدتُ ؟

فَصْمُ الْعَرَى

يوم الجمعة، رغم ذلك خرجتُ، أفضّل البقاء في البيت، خاصة أول النهار،
كسر العادة بالتأخر في النوم بعض الشيء وإبطاء الإيقاع. لكنها الفرصة
الوحيدة المتاحة لوداع صاحبة عزيزة. لا تجيء إلا مرة واحدة في السنة لتقضي
شهرًا تقريباً.

قصدت منطقة الأهرام حيث تقيم في بيت اشتراه ابنها الوحيد، تحيطه
حديقة مؤطرة بسور مرتفع. اجتزتُ الباب الخارجي حذرًا، لم أر الحارس.
وكنت وجلاً من الكلاب التي أخشأها. ضوء شفاف يت إلى لحظات بهجتي

المستعادة، لا أعرفه في فراغات مدينتنا إلا أيام الشتاء أو نهارات الصحو التي تتخللها نسمات متواصلة تُقصي الغبار. يعمق الألوان. خاصة الأخضر. على جانبي الممر الطويل المؤدي إلى مجموعات زهور بنفسجية يتوسط كلاً منها لحة من لون أصفر، لسبب ما تذكرت جسراً خصبياً في حديقة ما لم أستطع تذكر اسمها بالضبط. مجرى صناعي رقيق. أوراق بردي. زهور اللوتس المقدسة، وأقباس أخرى من نباتات أجهلها، أشجار البرتقال مثقلة بثمار لم تقطف بعد. بعد منحني تبدو بوابة تتخلل سوراً أقل ارتفاعاً، هل رأيته من قبل؟

أتوقف، لا يمكنني التحديد، رغم سرعة مرور الوقت، فإن اثني عشر شهراً ليس بالمدّة القصيرة وإن كانت تبدو عندي في حملها كذلك. يتقدم مني شاب يرتدي حلة سوداء وقميصاً أبيض منضبطاً. ربما يعمل في أحد الفنادق الكبرى القريبة، أو التحق بالخدمة قريباً. يواجهني بابتسامة حافلة.*

" أهلاً خالد بك .. "

أخرجت بطاقة تحمل اسمي وأرقام الهواتف الخاصة بي. قدمتها إليه حتى يتبين الخطأ. نطق اسماً مغائراً، ربما ينتظر شخصاً آخر، جرت عادة صاحبتنا هذه أن تدعو معظم أصدقائها في اليوم السابق على سفرها مباشرة. خلال الأعوام الأخيرة اتسعت صلاتها بعد استقرار ابنها في مصر ودخوله إلى مجال الأعمال، تناول الشاب الأنيق، الممشوق البطاقة. لم يتطلع إليها، دسها في حيب سترته الأمامي، مد ذراعه قائلاً :

" شرفت سيادتك .. "

يقصدني أم يعني خالد المجهول عندي. ازدادت اخنأته، لم أقدر على التطلع إلى ملاحه، غير أنني لاحظت اختفاء الباب الخشبي. أين.. كيف عبرت؟ هل تغيرت كثافة الأشجار؟

ممر آخر غير مرصوف، حشائش طويلة مخيرة، لم يظهر البناء بعد، تغير شامل وقع، درجة الضوء مخالفة، من وهج هادئ إلى تألق حاد، اختلفت أيضاً درجات اللون الأخضر وجذوع الأشجار وطبيعة التربة. كانت في المسافة المنقضية سوداء ناعمة. أراها الآن همراء. الاختلاف جعلني أحذر النظر إلى الوراء خوفاً من يقين غامض بدأ يتضح.

لا تمضي خطاي صوب البيت. إنما تنقلني من حال إلى آخر. أجهله في تفاصيله. لكنني ملّم به في جهلته، كأن شخصاً ما مرق إلى جوارى وأفضى بما أنا ملاقيه تم مضى.

الآن.. أمضي فوق أرض العراق، بالتحديد.. ضاحية من ضواحي بغداد، منطقة زراعية، مزارية التكوين. ناحية الرشيدية، لم أعرف كيف وقفت على اسمها، بالتأكيد لم أكن مأخوذاً بما أراه، فكأن بصري احتواه من قبل.

لم يكن النهر القريب ذلك المؤلف لي، الحاضر عندي دائماً وإن لم أمتس بحواره. إن لم أقعد بجواره، أينما وليت وجهي في القاهرة، في أي مدينة أو قرية أو تجمع. حتى في عمق الصحارى، غربية أو شرقية يدركني النيل. غير أن هذا النهر المساري على بعد يسير لم أره ولم أبحر عبره. لم اسمع به إلا في قصائد الشعراء، ومراجع الأدب القديم والتاريخ المندثر، حضوره أنثوي، ربما لتأنيث اسمه "دجلة" سماء القاهرة بعيدة. أستظل بأخرى تبدو أعمق زرقة وأشد انبساطاً، ربما لندرة المباني المتجاورة، المرتفعة. أو لغلبة الزرع، لم تكن اللحظة عيناها، لا قبلها ولا بعدها، لا أعرف، لا أقدر على التحديد.

ثمة من ينتظرنى ..

زوجة لم أرها. لم ألتق بها من قبل، لم يخاطب لسانها لساني، لم اصغ إليها بعد، مطلع على وجودها هنا في بؤرة معارفي. في مكان ما بين تلك الأشجار، تنتظرنى بعد أن رحت أجول في الموضع. متعجباً من كثافة حضرتها. وغرارة

أشجاره. لم أكن واثقاً من ملاحظها. من صوتها. لكن ما أثق به في بورة معار في الجديدة أن اسمها "تريا"، أقصدها بدون اضطراب، بغير الدهشة المتوقعة حتى مع انقضاء الأوقات، ومرور ما لم أعهده من قبل، توقفتُ عن العجب رغم انتقالها فكأن ما يجري لي يخص غيري. كأني أقرب ما يجري لذاتي، غير عابئ، كأن أمري لم يتبدل، وعندما وقع بصري عليها لم أمض إلى تأملها أو تفحص معالمها، أملت بها في جملتها ورغبتها لحظة وقوع بصري عليها.

مستقلة على الحشائش الكثيفة. متكئة على مرفقيها، وثابة العينين، نصف جسدها الفاره ملاصق للأرض، أعلاها ينهض بميل، منفرجة الفخذين، مرتدية "الجينز" الأزرق وقميصاً في لون السماء الصافية، نخزقه حلمتها لتطلأ بوجودها الأتم للمشهد كله.

في حضورها توثب وتخفز. امتناع وحضّ. قبول ودفع. كل ما فيها مركز، محور، أما عينها الفسيحان فمنهما الخلاصة وهما الأثر الباقي، لا أستعيد حضورها في أي موضع، أي لحظة، إلاّ وتبدو عينها أولاً ثم تأتي التفاصيل، أما الصلة الكامنة بين شفيتها ومحملها فمما يطول الحديث فيه.

صبغت كما أتمنى، كما أرغب، بل إنها حاوية، جامعة، فقوامها للمرأة الألف، ولون بشرتها الصفراوي الأشقر من القرطبية، وانفراجة شفيتها من محبوبة لم يرد ذكرها في هذا التدوين إلاّ تلميحاً، لذلك نزل عليّ بهتٌ رغم وعي البازغ أنها تمّت إليّ. وأني أنتمي إليها. رغم اليقين الداخلي إلاّ أنني اعتبرت البصة الأولى بمثابة البداية عندي. شرارة الانطلاق وبدء الرحيل، رغم أن وصولي اكتمل بإدراكي لها. وإن علمتني الأيام أن الرحيل في الوصول. والوصول في الإقلاع. ولولا السفر لما كان الرسو، مع صعوبة تحديد أسبقية أيهما، تداخلت لحظاتي بأوقاتها. اجتهدتُ لإخفاء عجيبي وتوقي إلى معرفتها واحتوائها. رغم عمومية إدراكي إلاّ أنني مشوق إلى التفاصيل. كيف يجري هذا

كله عبر ماخيل إليّ أنه هنيهات. مع أنني طالعت في كتب الأقدمين ما يقرب من ذلك. وقوع ما يقتضي الكثير في الزمن القليل، لكن.. فرق شاسع بين أن نقرأ وأن يجري لنا ما طالعناه مسطوراً. حطرت لي صاحبتى المنتظرة، تمنيت لو أتيح لي وداعها. لكنني لست على يقين بإمكانية رؤيتها مرة أخرى. وهذا أول هبوب من حالي الأول في حالي الثاني يتعلق بموعد عابر، وليس بشيء من أموري الثوابت.

كنت مستسلماً، مدفوعاً إلى كافة ما يتفق لي، عبقها آثار عندي بهجة وحسرة، البهجة لفرداته والحسرة لأنه يدنو من فوح أدركنه بعد طول كد حتى أنني فارقت الأهل والوطن من أجل صاحبتة، وعندما اجترت وتمكنت، وشارفت أدركني ما خشيت وقوعه. حتى رجوت انصرافي وكدت أنوح لأفرد. وعندما أنفصمت العرى، واستحال الوصل، لمت نفسي وشارفت على هلاك مبين. لكم بحث عن ظلها بين الظلال. وإيقاع صوتها، وطريقتها في نطق مخارج الحروف. لن أبيض، التذكر جالب للحسرات والأوجاع، عندما رصدت ملامح غيرها لزمّت. وإن تبينت فيما تلي ذلك خصائص تحقق لامرأتي البغدادية الفرادة والتمكن.

عطرها أولاً، أعني ما ينبثق من جسدها. غير أن أعجب ما لاقيته منها تغير نسائهما تبعاً لأحوالها. تغيب روائحها الجليلة عند شرودها. وتقوى عند تجردها واكتمال ألق غريها وشبوب رغبتها، تبرز بهبوب لطيف عند فرحها أو عبتها. تماماً كمدخل دكان للعطور، قصده مراراً بصحبة والدي - رحمه الله - وكانت تربطه بصاحبه مودة، تعرف إليه أثناء صلاة الفجر في مسجد مولانا الحسين، كان اسمه البلديسي عند شرودها أو استسلامها للحزن يلوح منها طيف المسك الغامق. لكنني أسبق فلا تمهل، قبل الدخول إلى سرد أيامي البغدادية أتوقف عند البدايات، بعضها لا أستعيده إلاّ وتحدث عندي رجفة.

تقتزن الدهشة واللذة بالبدايات. أما الخضم فمفروغ منه، متداخل،
يفسده التكرار. كل من عرفتتهن أو رغبتهن وأدركتهن بالمخيلة تحدد أم
معهن منذ اللحظات الأولى، إنما الأمر ظهور مباغت، ثم تعقبه التفاصيل
والتفاسير، لا يعني هنا تمام الصلة أو انقطاعها. فكثيراً ما تكتمل النهاية
تحقق الوصول.

البدايات ألفة، مركزة، ساطعة، واضحة، يمكن تحديد ما قبلها وما
أما النهايات فجراحة. تستمر امتداداتها. وحتى مع وقوع الفُرقة. ونأبج
الإلف، يظل عنده ما يحرك المواجهيد. ما يقض مضجع حتى لو انفردت
الأفاصي. لحظة دخول أنثى مجال بصري، لي.. مقاييسي الخاصة وأسباب
المتفردة. كم رأيت جميلات بَهْرُن جمعاً ولم يحركن عندي ذبذبة.

ماذا يجري لحظة تجلي المحبوب ؟

هل يفد من الخارج ؟ أم .. يخرج من الذات ؟

هل يصل من مكان ؟

هل يكتمل في زمان ؟

هل نولد به، وتبقى الملامح غائمة حتى يقع ما ينبه ويخرض ويدفع إلى
التهلكة أحياناً ؟

لا أدري.. وما من إجابة شافية، لكنني أحمد الله أنني مازلت قادراً
الطرح، كثيراً ما يكون التساؤل ابلغ. وأدل وأشفى من الجواب، ما أعر
تلك اللحظات المشرفة حددت مراحل عندي، وأرست علامات، عشق
الشروع عند توافق النظر، وتواصل المعنى بالمعنى بدون نطق. لكم استه
لنظرات آمرة، ساعية، حاضّة. شارحة، داعية. ركنت إلى لحظات الصب
العامرة، المضاجعة بالرغبة والتوافق. لكم أستعيد قول محبوبية سيرد ذكرها

تدوين أخصصه لمن طالعت أسرارهنّ، وأخذتُ عنهنّ، وأخذوا عني، بنفس
إيقاع ربة النغم التريكية..

" ماذا تريد مني؟؟ "

الصبيغة تساؤلية، لكن الجوهر تلبية، كنا نجلس قرب حافة النهر، نجتمعنا
حاضرة ضوئية لحشائش ناعمة كوبر النعام، لحظة نطقها بالسؤال دبت حرارة
عندي فاشتد أمرّي وتأهبت لاختراق الفضاء وإحصاب النجوم في مداراتها،
أستعيد القدرة على الجمع بين الضدين مبهوراً، الظاهر المستفسر المشوب بلوم
وتحذير وربما مسحة غضب. الباطن المجوهر، الحاي للرضا والاكتمال.

زمن مغاير حوى حديث طويل لزمّت خلاله الحذر. كان توحهي إلى
محبوبي القديمة تلك ممتزجاً بالمهابة، كنا في بيتها، طابق مرتفع، نافذة مفتوحة
تطل على ساحة مستديرة بالزمالك، لا تقع في مواجعتنا أي بنايات، تطلعت
إلى السماء الدانية، وعندما عدت إليها بعيني، كانت تنظر إليّ بلوم صامت،
ناطق..

أشرت إلى جوارِي الخالي..

"تعالِي هنا .. "

لم أعرف سرعة تتخلل مثل الحاجز الضيق الفاصل بيننا، انتقلت من موقعها
حيث تواجعتني إلى جوارِي، بلتُ ناحيتها. يركتُ بحملي كلّ على شفيتها.
وقد حاولتُ التعبير عن تلك البداية في كتابي "خيطط الغيطاني" فليطالعه من
يرغب.

أما البداية التي سبقها تمهيد استغرق أكثر من عامين فأعدت صياغتها في
دفترين. الأول يختص بالاندلاع وعدم التمكن وعنوانه "رسالة في الصباية
والوجد" والثاني محوره اللقاء والامتزاج. ولثراء ما جرى أفردتُ فصلاً يصف

لحظات هلاّتها. ضمّنته "دفتر العشق والغربة"، ما يعينني هنا لحظة وصولي بيتها في موسكو، وتحركها في الحيز الضيق لشقتها الصغيرة، وذلك الجمود المخير، الثقيل، حطّ عليّ بسبب تحقق ما سعت إليه زمناً طويلاً وبذلي الجهد. غير أنها كانت زاهية الذكاء، شفافة اللماحية، مفردة في كوني !

هي.. أكثر من فهمت عني بعد الراحلة أمي مع اختلاف المتطور، وهي من دلّني على ما لم أره من نفسي، ومن ذلك الشجن الغروبي، والدمعة المعلقة، والاندفاعات البكر، والدهشات الأولى، ونطق الأصابع عند بهت اللسان. وبغثة ظهور التعابير الكامنة. لحظة البدء بها منفصلة عن كل ما عداها. استلقاها فوق الفراش. دنوي من وجهها، نطقها المنعم، المنعم.

" هل تريد الآن ؟ "

" لا .. لا ليس الآن "

دهشة أضاعت عينيها. سارعت موضحاً. مشهراً :

" أريد من قبل.. ومن بعد .. "

عضت شفتها السفلى بسنيتها الأمامين الأفلجين :

" رائع .. رائع .. "

وبداً إنشادنا المتناغم. المتوافق. الساعي إلى الكمال، ليس بمقدوري الإفاضة، فالأمر عويص، وينأى عن قصدي هنا، وأخشى الإطالة في غير محلها، لكنني أوحز فأقول إنني مع طوافي كله لم ألق أجمل ولا أكمل من لحظة بوح الأنثى بقبولها وسفورها عن رغبتها، بالنظرة. باللفظة، بالخلجة، بالشهقة، بالتنهيدة الحري، وقد حربت هذا وأتطلع إلى المغاير لأعيش بدايات أخرى. لأجري

المقارنة بما يحويه رصيدي الدائل، النافذ أبداً. غير أنني مهما تمنيت أو تخيلت. فلم أتوقع قط ما وجدت نفسي فيه بعد اجتيازي البوابة.

بداية لم أعرف مثلها، هكذا وقفتُ أمام مَنْ أعلم وأجهل في الوقت عينه، يداي تلامسان حصري، حاسّة شمّي مستنفرة لتقبل واستيعاب روائح لم أعهد لها، منها المنبعث عبر الحشائش المغايرة. والطين الأكثر بدائية. والهواء الآتي، وأنوثتها الفياضة.

استلقيتُ إلى جوارها، أنتظر حديثها متودداً بالنظر، من الواضح أنها تنتظرني، في عينها دعوة وحض. من ناحية أخرى وجب لي التعلق، إنها مدخلي إلى حقيقتي الجديدة التي أجهلها. العجيب أن راحتها المختلطة بالأرض والحشائش أجمت رغبتي. حتى أنني لم أعد أعبأ. هكذا شرعت، هويت بشفتي محتوياً ارتواء فمها، دفعتُ لساني إلى أقصى مدى، لم أكن أعانقها إنما ألوذ بها، أرتدّ إليها. أثارني ما صدر عنها من أنين خافت. وشهقات مقموعة، وانفلاتات استثنائية. استفسرت هامسة بعد استقرارنا. متعجبة لما جرى لي. أليست بصحبي الوقت كله؟ داريتُ حيرتي بإقبالي، دسستُ أنفي بين نهديها المرفقين، لعبيرها شهقة الحليب الدافئ الخارج لثوه من الضرع، أنتبه لأول مرة إلى تشابه رائحة النطفة بالمنبعث من الطين الطازج، الطارح، القلب، المتأهب لتلقي البذار.

للمت نفسها بسرعة، قامت، ترفع بطلونها، عمارتها سامقة أما استداراتها فمموذج. قالت إنها تفضل مغادرة المكان، ثم قالت إنها تمنى أن تعرف ما جرى لي. هذا يحدث لأول مرة، جنون.. جنون.

" لكنه جنون لذيذ .. "

طوال اتجاهاها إلى الطريق المرصوف كانت تغمغم وتهمهم، كنتُ قادراً على تفسير بعض ألفاظها، تأبى مفارقة اللحظات المنصهرة بينا، مرة تسألني عما

حل بي. ومرة تذكر حفظنا الحسن إذ لم يرنا أحد. ماذا يقولون عندئذ؟. رحل
يضاح امرأته في الحديقة العامة مع أن يبتهم قريب، ماذا يقولون؟

قلت إنها بدت في لحظة متفجرة، عندئذ قررت أن ألي نداء عينيها، ألا أعبأ
أو أهتم بالخلق كله. تردد بلهجتها البغدادية، أحببت إيقاعها. ألفاظ ظاهرها
نحسن، لكنها رقيقة الجوهر.

" مجنون قلبي.. مجنون عيني .. "

وعندما تحكي بلهجتي القاهرية، تبدو حروفها رشيقة حتى مع تعثر خطوها
في سمي. قالت إنها تتحدث بها قبل أن تلتقي بي، لم أدر ماذا تقصد، أو ماذا
تعني؟، بالتأكيد ليس لقائنا في الرشيدية، إذن.. متى جرى ما تشير إليه؟ حتى
الآن لا أتبين ظروف اجتماعنا ثم ارتباطنا. لابد أن ذلك جرى عند نقطة لم
أتبينها تماماً في الماضي الذي يخصني ويخصها، رؤيتي لها بداية عندي لكن ليست
كذلك عندها، تتحدث عن لقاء وعن حفل زواج في فندق كبير مطل على
دجلة. وثلاثة أيام لم أخرج من الغرفة. لم نفتح الباب لطاغم الخدمة. فقط كنت
أناول صينية الطعام من خلال انفراجة الباب المحدودة، في وقت ما أخرجها.
فيما بعد سمعتها تحكي منباهية لإحدى صاحباتها..

" أيام ثلاثة لم تغادر ... "

تخفف من صوتها في إichاءات دالة، كنت أنتظر مرور الوقت لأعرف وأتبين
ساراتي الخفية عني، ما أدى بي إلى تلك اللحظة في البستان. غير أنني لقيت
صعوبات. إقدامي على بعض الأمور حيرني، كذلك ظهور أفعال لم أعهد لها
مني. فمن ذلك ما جرى بعد وصولنا إلى مكان انتظار العربة. درت حولها
واقفاً، وقفت أنتظر، قالت بدلال :

" افتح .. ماذا تنتظر ؟ "

مددت يدي في جيبي .

مفاتيح !

أولجت واحداً منها بدون أن أنتظر أو أبحث أو أختبر . دار معي . غير أن ما أذهلني قدرتي على القيادة وإتقاني وثقتي ، أنا الذي لم أحلس إلى مقود سيارة عمري كله ، كيف أعرف الطريق ولم أره من قبل ، كيف أدور عند منحنياته ؟ أتمهل عند مفارقه ، مع أن بصري لم يقع على جانبيه من قبل . بل إنني مؤتلف مع كافة ما يحيطني ، متجاوب ، منفعل بالمقام العراقي وأنات موسيقاه الحزينة ، لكم مسني ذلك التشيع المكثوم ونبهني إلى أن ما كان لن يكون ، وأن الحياة تسري طالما بقيت قدرة الشوق إلى لحظات منقضية ، وأهداف كانت قاب قوسين أو أدنى غير أنها حادت . أصغيت إلى محمد القبنجي ، وناظم وسليمة ، ويوسف عمر ، وأثارني صوت صديقة الملاية واستحضاري الجنوب الصعيدي عبر بحثها الخشنة ، تمايلت مع أنغام الجالغي ، والعزف على الجوزة ، ولم يفتني إلا الصغاء إلى السنطور عصرأ ، دخنت الترحيلة وصار عبير التبنك الشمالي من معالم ذاكرتي ، بل إنه اختزال روائع المدينة كلها . نمت فوق سطح البيت المخاط بحديقة مخملية فسيحة . توسدت ذراعي عارية في لبالي الصيف . وكنت أحاط من خلال حواسي المترتبة بدبيب الشهوة فوق البيوت المستلقية تحت السماء التمورية الساخنة .

لم أطلع على ظروف ارتباطي بها . لم أعرف التفاصيل ، لكنني أدركت من تلميحات وإشارات شتى أننا التقينا في بغداد ، وأنها واجهت مشاكل مع أسرتهما . أحد أقاربها كان يريد لها ، وطبقاً للتقاليد فلم يكن مستحباً زواج الابنة من غريب ، وأي غريب ؟ من ديار مغايرة ..

أصرت .. يُدعم موقفها استقلالها الاقتصادي . تمتلك أراضي ورثتها عن والدها في واسط . ومعملاً للنسيج في الحمدوية . ودكاناً لتجارة الحنة في سوق

الشورجة. وفي الأخير صار مقري ومكثي النهاري، احتوتني الظلال، ورائحة التبغ الطازج، والشاي الأحمر في الأكواب الصغيرة "الاستكان" وشراب الليمون الطازج، ولبن أربيل. لم أتهاون في أي أمر يخصها، كنت أدير ما يمت إليها بدقة وحساسية، وهي تفهم عني.

لم أعرف الحناء إلا في أيدي النساء أو متخللة شعورهن، لم أطلع حتى على شكل نباتها. لكنني هنا في القيادة صرتُ خبيراً بأنواعها ومواعيد زراعتها وطرق طحنها، وحفظها، وكنت أشرف على تصديرها إلى بلدان شتى منها.. مصر، كنت أعرف آتيني بدون الاطلاع على ما كان مني، أعني ما يخصني من زمن منقضي هنا، أما زمني الآخر أو الموازي.. لا أدري فبدا لي بعيداً، كأنه يخصّ غيري، وبالطبع لم أقدم على البوح لمخلوق، لم أنطق بقيس مما أحتويه حتى خُيِّل إليّ أحياناً لرضائي بالحال وتنعمي معها وكُنّيتُ إليها أن الواقع الآخر يخصّ غيري. غير أن هبوب صورة أبي أو إطراقة أمي أو سعي ابنتي أو ابني هناك كان يثقلني، ويثير شجني، عندئذ تستفسر حانية..

" إلى أين وصلت ؟ "

أبتسم، مشيراً إليها. يشير إصبعها إلى شفتي

" لا أحب ضحكك هذه .. تُخفي بها أمراً .. "

" أنا ؟ "

تميل إليّ. خصبة، دافئة، حنونة، والله لم أمل رحابة وجهها قط وغزارة عينيها، تفيض عليّ، أصبحو فألقاها إلى جواربي. تتطلع إليّ، خرجتُ من الصباح الباكر إلى الحديقة وقطفتُ الزهور التي تفتحت ليلاً. توزّعها حول وسادتي. تقول :

" لا بد أن تفتح عينيك على الجمال .. "

أحببها صادقاً :

"وهل هناك ما هو أجمل منك ؟"

تشير إلى صدري، إلى عيني، إليّ

"أنت .."

أعجز عن المجاورة، أطرق، أفاجأ بها تنحني مقبلة يدي ..

"ليس لي إلا أنت .."

بعد لحظات سكون تكمل

"أخاف أن تهجرني .."

أندفع إليها، أقبل أطراف كونها، أنحني محاولاً لثم قدميها. يتواضع كل منا صوب الآخر فيقع الامتزاج السكري، إذ أغادها إلى القيسارية. أو لإنجاز عمل، أو إلى موعد ضروري أتمنى العودة إليها، أكثر أوقاتنا ازدهاراً وتأججاً ما أمضيته معاً بمعزل ومنأى.

ليالٍ عشر في منطقة صلاح الدين .

في شقلاوة. في حوض راوندوز شتاءً. في البصرة صيفاً، ما اعتاد الناس الذهاب إليه صيفاً زرنه شتاءً والثلوج التي يهرب الخلق منها لجأنا إليها للانفراد، تلاقي منظورها، بمنظوري، تلاشي قصدها في قصدي، غير أن ما استمر مولماً، منغصاً، يقيني أن إقامتي مؤقتة، وأني عابر إلى ضفة أخرى لا أعرف كنتيها، أنني مقبل على سفر.. إلى أين؟ متى؟ لا أعرف، لا يمكنني القطع أو تبين النبوءة. كما حثتُ فجأة سأرحل في خطوة، متى.. لا أدري ! حتى بعد وصول طفلنا الأول الذي أسميته أحمد، كان يشبه شقيقه هناك، يشبه

شقيقه محمد هناك، بل كأنني أنظر إلى هذا في ذاك، هل سيلتقيان يوماً ؟ بعد وصول ابنتنا أطلقت عليها ماحدة، أصبرت وتمسكت فارتحت إلى قرارها، نفس الاسم هناك. بعد بلوغ محمد السادسة وشقيقته الثالثة، عظم عندي الهاجس بدنو رحيلي. أخرج من البيت فلا أتق من رجوعي. حتى سألتني امرأتي البغدادية ذات صباح..

"مالك تظمني وكأنك لن تراني .."

حُشْتُ دمعِي، أنزل الدرج فلا أوقن بوصولي نهايته، أبدأ سفري إلى واسط أو الخمودية فكأنني أقطع ابتهاجا واحداً، نافذ التدبير، أصغي إلى إيقاع نبضي فأوشك على رصد الخفقة التي لن تعقبها أخرى أو لحة ناظر.

لم أطلعها على شيء من دخيلي، ولم أنهيها عن أمر، إما كان عيشي معها سودداً مبيناً، خلواتنا الليلية. وتجدها الدائم. وقدرتها على استثارة كوامني، لم ترقد إلى جوارِي إلا بعد ارتدائها أنواعاً شتى من ثيابها الحريرية المفهافة. تفننت في اختيارها وشرائها من متاجر بعيدة. تَصَبَّر على الاستمرار حتى تلمح في عيني الإعجاب والرضا.

لم تصدني قط. ولم تهمل أمري، سعت إليّ في أوقات انطوائي، واستغراقي في تأمل أحوالي وتقليب شئوني. كانت تسبغ عليّ ما تفيض به، دفعها قوة. ورسائلها لا تنتظر الفض. مستحيل إرجاؤها، ومن ناحيتي أُقْبِلُ لأرشف من عطرها الداخلي، وحنوها المغدق.

لنا نزواتنا المفاجئة، ومشروعاتنا المندلعة، ولحظات توحيد كوكبية، أما أغرب ما صادفني منها وما حيرني، فإني لم أقرّبها مرة إلا وجدتها مثل البكر التي تعرف خضخضات المتعة لأول مرة، تستحضر ما في الكون من جمال مهدر، مؤجل، عشت الأسواق من خلالها، اهتمامي بما استأمتني عليه، أمضيت في الشورجة جل أوقاتي. والصفافير، وشارع النهر، وحرصت على هذا السوق

الفريد صباح كل جمعة، كافة أنواع الحيوانات، أندر الطيور. تماماً مثل سوق الحمام الممتد بين ضريح الإمام الشافعي وحتى ميدان القلعة، فيه الكلاب والتعابين وأنواع العصافير النادرة، وسائر ما يلزم من أطعمة الحمام وأدوات وأدوية. اعتدتُ شارع الرشيد. وأبو نواس. والسماك المشوي على لهيب النار، وأقمتُ الصلوات مع أصحاب المقاهي وخادم ضريح سيدي عبد القادر. والرحال الساهرين على ضريح ومقام الإمام موسى الكاظم. وتأثرتُ كثيراً بمقام الشريف الرضي المواجه وداومت على الصلاة في الساحة الصغيرة المضمومة للملحقة به. ولأنني انطلقتُ إلى المدينة من خلالها صار حضورها عندي أثرياً. للحداثق لون عينيها، والليل ينبثق من شعرها وغموضها، أما النواحي فللحد من رؤيتها. الحق.. أنني توحدتُ بها صار حنيني إلى امرأتي الأخرى صادراً عن المهاجر المستقر، المنقطع، بل داخلي الشك في أمري أحياناً فكأنني لم أعرف غيرها.

أحببت اسمي لنطقها به، واستفساراتها عني إذ أتأخر قليلاً، أما ليالي توالجنا فأمدتني بفيض أستمده منه وأستعين. عرفتُ غضبها مرتين لاغير. ورغم شدة انفعالها واحتقان حضورها فلم تسعُ إلى تصعيد أو مواجهة معي، إنما كانت تفرغ طاقتها في أشياء لاصلة لي بها. ضربتُ الأرض بقبضتها، ثم انفجرت باكياً.

عندما افتتح المقهى البغدادي قسدها وأحببناه. كنا نتحي ركناً في قسم العوائل. أدهنَّ النرجيلة ونأكل الشكة ونتطلع إلى النهر ونرقب طفلينا وننعم بالنسمات. صباح جمعة استجبتُ إلى اقتراحها المفاجئ. أن نمضي لزيارة صاحبة لها تقيم قرب الرشيدية. زوجها ضابط كبير، أنشأ بيتاً من القصب، بناه على هيئة البيوت المعروفة بالجبايت في الأهوار الجنوبية، فرش به بسجاد ياقوتي، وفي المزرعة أحواض لزراعة السمك، وما كينة لرفع الماء من طراز قديم، عاينتها في زيارة سابقة، وتأثرتُ من تكاتها التي أعادت إليَّ صوت ما كينة الطحين في

جهينة مسقط رأسي وهذا صوت مؤسس عندي، لعلني أفيض في الحديث عنه إذا تحدثت يوماً عن الأصوات العالقة بروحي.

صباح مبهج، ضوء عذب، خرجنا متضامين، متقاربين، متوحدين، عندنا الرغبة في احتضان الكينونات كافة. ملاحظها مستقرة، مشعة، رحية، لدنة فوق المقعد الخلفي محمد وإلى جواره ماجدة يحنو عليها، في اكتمالنا أمان لهما وتمام بهجتهما. استعدتُ غناء ليلي مراد، ونشأ عندي توثب.

توقفتُ العربية في الساحة الأمامية الممهدة. أشم مياه النهر القريب، الزرع الكثيف، أتقدم من الباب الذي يتخلل السور، أجتازه، أمامنا ممر ليس بالقصير، محفوف بأشجار التين، التفتُ لأتعجل ماجدة الصغيرة، لتتعلق بيدي، ثم شيء ما يتغير..

ضوء مغاير لا أعرفه إلا شتاءً. الزرع مختلف. حضرة أعمق، على جانبي الممر الطويل زهور بنفسجية يتوسط كلُّ منها دائرة صفراء، أتوقف، أتلفتُ حولي، يلحقي ذلك الشاب الممشوق. يرتدي ملابس الفندق القديم القريب..

"تحتاج شيئاً جمال بك .. "

نظرتُ إليه، ألم ينادني عند عبور البوابة بخالد ؟

ماذا جرى ؟

مختتم

إذ أستعيد ما كان مني، أجد أن ما ثمنته من النساء أكثر مما أدركتهن بالفعل، بعد فوات الأوان أعقل أن البعيد النائي أثار عندي ما لم يحققه القريب الداني، وأن اكتمال الشيء يعني نقصانه أو بدء نفاذه. لذلك قالت لي يوماً محبوبتي ممن أدركتهن بالتحقق وليس بالحلم. عندما لاحظت صمتي، وصدت بدء نكوصي..

" يبدو أنك تعشق المستحيل "

ربما كان ذلك صحيحاً. لكن لا يمكنني الجزم أو القطع بأي شيء الآن، ذلك أن التحديد واليقين يكون في بداية الرحيل أنصع.

مع الدنو الحثيث يبدأ اللائقين، والغريب أن الإنسان إذا اكتمل رحل، أو بمضي بعد تمامه، يذهب جاهلاً بأقرب المكونات إليه، بجسده ونفسه، هذا حديثٌ طويل لو بدأت الخوض فيه لن أكف، لكنني أكتفي بتلميح متضمناً بعض تصريح. إن أنرى ما عشته لم أعرفه ولم أدركه إلا بقوة المخيلة، وما انقضى مني راح جلّه في التمني. لقد أوصدت دوني أبواب بلا حصر. حالت وصدت طرقت برفق. وأحياناً صرخت. ولم يأخذ بيدي إلا تخيلي ما وراعيها، واجتهادي في طي الفراغات العلى. بعضها فتح لي، اجتزته وعبرت عتباته، فلم ألق إلا الحسرة وبواعث الآهات، ذاك نثاري.

جمال الفيضاني - ١٩٩٥ - ١٩٩٦

إصدارات شرقيات

روايات

- اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية / غيري شلي
رائحة البرتقال / محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بويللو / إدوار الخراط
يقين العطش / إدوار الخراط
أوراق زمردة أيوب / بدر الديب
صخب البحيرة / محمد البساطي
متون الأهرام / جمال الغيطاني
خُلسات الكرى / جمال الغيطاني
العاشق والمعشوق / غيري عبد الحواد
داخل نقطة هوائية / وائل رجب
هاجس موت / عادل عصمت
تفريغ الكائن / خليل النعيمي
اسم آخر للظل / حسني حسن
تصريح بالغياب / منتصر القماش
أطياف العرش / نبيل سليمان
ورد الأحلام / عبد الحكيم حمير
مكان اسمه الكهيت / شيم والي
انجباء / ميرال الصحاوي
أطلال النهار / يوسف القعيد

قصص

- السرائر / منتصر القماش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
القمر في اكتمال / نبيل نعيم
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
رجفة أثوابهم البيض / يوسف المجهيد
شرفات قرية / هناء عطية
صياد في غصن / عبد الحكيم حيدر
عرائس من ورق / أحمد زغلزل الشيطي
الرجل الذي عرف تهمته / لطيفة الزيات
خمرزة المشي / محمد البجلي
مريم غسل الجثوب / عثمان حامد سليمان
غبيوط على دوائر / أحمد فاروق ♦ هشام الورداني
رائل رجب ♦ أحمد غريب ♦ نادين شمس ♦ علاء البربري
نحت متكرر / مي التلمساني
خشب ونحاس / سميرة رمضان
ليلة ماري الأخيرة / نجم والي
طلب لجوء / عبد الإله عبد القادر
تهوؤ / نورة الغامدي
ريش الحمام / محمود تراوري

شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم دارود
لفقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب

عيون الأدب الأجنبي

البطء / ميلان كونديرا
البحر والسم / شوساكو إندو
عبدة الصفر / آلان نادو
مدام بوفاري / جوستاف فلوريير
المكان / أني لارتو
الكلمات / جان بول سارتر
الأحمر والأسود / ستندال
الآثار الشعرية الكاملة / إديث سودوجران
حجاز / توني موريسون
مختارات من الشعر الأمريكي المعاصر / ترجمة د. حسن حلمي
ويليام بتلر بيتس / قصائد مختارة / ترجمة د. حسن حلمي
اغتيالات للذكرى / ديدنه دينانكس
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول / مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثاني / مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثالث / مارسيل بروست*
الربيع وقصول أخرى / ج.م.ج. لوكيزيو
ديريارم / ستندال*
أسير عاشق / جان جوينيه*

الضفلة الأخرى / جوليان جراك*

ذكريات الطفولة / مارسيل بانبول*

دراسات ثقافية عربية

مسرح الشعب / د. علي الراعي

من أوراق الرفض والقبول / غاروق عبد القادر

البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي

الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط

يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش

أفق الخطاب النقدي / د. صبري حافظ

الاقباط في وطن متغير / د. غالي شكري

العين والإبرة / عبد الفتاح كيلطو

نقد بلا سلطة / د. غالي شكري*

جماليات التشظي / السيد فاروق

قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر / صلاح صالح

دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب المعجاني / تزيين تودوروف

الوضع ما بعد الحداثي / جان - فرانسوا ليونار

مجتمع الفرجة / جي ديور

تاريخ القرصنة البحرية / باتسيك مانوفسكي

الاغتراب / ريتشارد شامنت -

حدود حرية التعبير / ماريتا ستاج

أزمة منتصف العمر / إيلنا لوشان

القصة ♦ الرواية ♦ المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع

الأدبية المعاصرة / ترجمة، محمدي دومة*

كبش الغداء / ريتو جبراز*

مدخل إلى الشعر الشفاهي / بول زمير *

نشوء الرواية / إيان وات *

الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر الشام / ز. ا. لين *

الموت في الفكر الغربي / جاك شررون *

كتاب شقيقات للجميع

أيام من حياتي / هرمان هسه

قصص التحول في الأدب العالمي الحديث:

الأنثى/ جورجيل ♦ المسخ/ كافكا ♦ اللذي/ روث

أثر العابر / أمجد ناصر

من مجمرة البدايات / محمد عفيفي مطر

حمام البحر / خالد عبد المنعم

خطوط الضعف / علاء خالد

ممر معتم يصلح لتعلم الرقص / إيمان مرسل

ثمة موسيقى تنزل السلالم / علي منصور

صمت قطنة مبتلة / فاطمة قنديل

شهرزاد في الفكر العربي الحديث / د. مصطفى عبد الغني

إغواء الغرب / اندريه مالرو

لا أحد يأتي هذا المساء / محمد موسى

حوريات البحر: مختارات قصصية / ترجمة: إدوار الحراط

حواس خاسرة / منعم الفقير

طيور جديدة لم يفسدها الهواء / طارق إمام

سراب التريكو / حلمي سالم

صورة شخصية في السبعين / جان بول سارتر

«... وليلة» / صلاء قحى

أيورق الندم / سعد الحميد

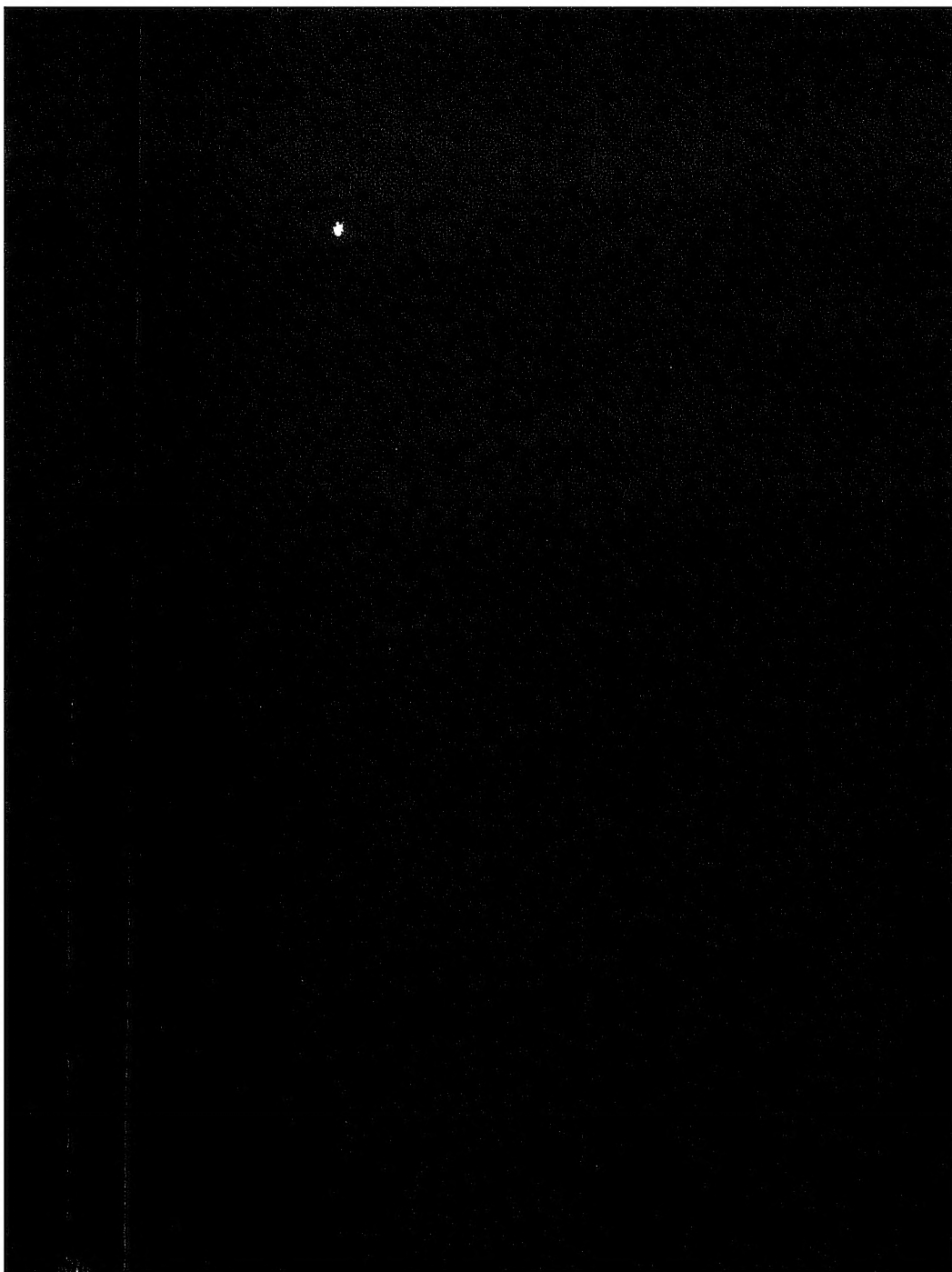
في البحث عن لؤلؤة المستحيل / د. سيد البحراوي

الدليل اللغوي العام / سليمان فياض

الأفعال الشاذة / سليمان نياض
قصة الأدب الفرنسي / د أمينة رشيد
معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث / توم شترابند
لماذا ؟ قصيدة حب / إدوار الخراط
الكتابة / مرجريت دوراس
غواية موتي / ملرى نيمبي
فضاء المراثي / عبد الله السمطي
إن تغنت القصائد أو انطفأت فهي بي / فوزية شوش السالم
أناهيده / محمد يوسف

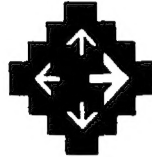
فنون

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)
لغة السيما / علي أبو شادي *



هل للعشق من تمام !

غفوة نومٍ ويغيب العاشقُ في لعبة حلمٍ أثيرية، تندفق الصور
من كل صوب، ويترك الشيطانى روحه تحلق حرة طليقة مع
المحبوبة، صنو الروح الأبدية، البعيدة الدانية، المرئية اللامرئية،
تومض، فيمد قلمه فتفلت منه هاربة دائماً، مراوغة أبداً.
لَمْ يقوى العزم عند نفاد الطاقة وقرب التمام، لَمْ الالتماع قرب
الانطفاء، لَمْ لا يتوقف الزمن ويتأخر الاستيقاظ فهل للحلم أن
يكتمل وهل للعشق أن يتم!



دار شرقيات للنشر والتوزيع

